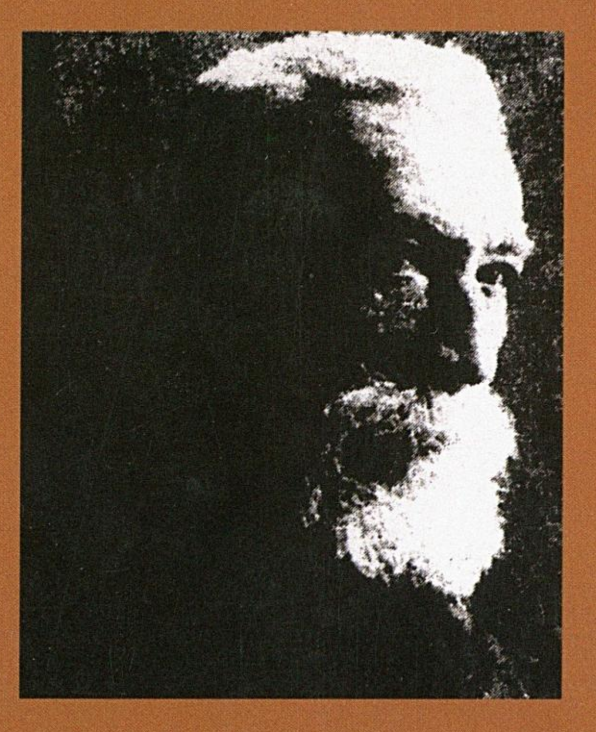
١٩٢١

مكتبة نوبل

أناتول فرانس

تاييس



علي مولا

ترجمة :

أحمد الصاوي محمد

تاييس



Author: Anatole France	المـــؤلـــف : أناتول فرانس
Title: Thaïs	عنوان الكتاب : تاييس
Translator: Ahmad AL-Sawi Mohamad	المتـــرجـم : أحمد الصاوي محمد
Al- Mada P.C.	النـاشـــر : المدى
First Edition : 2007	الطبـعة الأولى : ٢٠٠٧
Arabic Copyright © Al- Mada	الحقوق العربية محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣

www.almadapaper.com

almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

٢١ ١٩٢١

مكتبة نوبل

أناتول فرانس

تاييس

ترجمة أحمد الصاوي محمد





هذه الراوية أقدمها إلى شباب بلادي وغيرهم من طلاب الحب والحق والحكمة. قصة رجل مسكين راح ضحية هذه الدنيا الغرور، لعلهم يتدبرون ما فيها من عظات سامية، فيسيرون في الحياة في طريق الإخاء الروحي، بأقدام ثابتة، متنكبين رمال التعصب الخائنة، أوفياء للإنسانية، مخلصين للحقيقة، هائمين بالحكمة، ناصرين الفضيلة دواماً _لكيما تكون لهم حياة موفورة

أحمد الصاوي محمد



اللوتس

كانت الصحراء في ذلك الزمان يسكنها النساك في أكواخ لا تحصى، بنوها من الأغصان والصلصال، وهي تمتد على شاطئ النيل متجاورة منثورة، بحيث توافر لساكنيها الغايتان: العزلة، والمؤازرة لدى الحاجة، وبرزت الكنائس هنا وهناك بين الأكواخ، علها شارة الصليب، يقصدها الرهبان أيام العيد لإقامة الشعائر والمشاركة في التبرك بالأسرار الدينية، وكان على ضفة النهر الجديد أديار آهلة بالرهبان وكلهم قابع في كسر صومعته الضيقة لا يتدانون إلا ليذوقوا طعم الوحدة.

وعاش الرهبان المتبتلون والعاكفون في زهد وتقشف، وكانوا يصومون حتى غروب الشمس ثم يتبلغون بقليل من الخبز والملح. وطمر بعضهم أنفسهم في الرمال متخذين الكهوف أو المقابر مساكن كانت غاية في العزلة والانقطاع.

أخذوا جميعاً بأسباب التقشف، فارتدوا ملابس من وبر الإبل، وكانوا بعد طول التهجد يفترشون الأرض، ويصلون وينشدون المزامير، وقصارى القول، أن هؤلاء الزهاد كانوا في كل يوم يزاولون ضروب الصلاح والتقوى جميعاً، ولما كانوا يتأملون في هول الخطيئة الأصلية[1]، كانوا يحرمون أبدانهم كل متاع ولذة، حتى العناية البسيطة التي لا غنى

عنها وفاق رأى عهدهم، وذلك اعتقاداً منهم أن أمراض البدن تطهر الروح، وأن أشرف حلية للجسم هي البثور والقروح، وهكذا صدقت فيهم كلمة الأنبياء: "يبتهج الفقر ويزهى"...

وكان بعض نزلاء "طيبه" المقدسة يقضون أوقاتهم في التنسك والتصوف، بينما يسعى غيرهم في تحصيل معاشهم بضفر ألياف النخيل وخدمة الزراع المجاورين في أثناء الحصاد بأجر معلوم، أما الخوارج فكانوا يتهمون بعض الرهبان زوراً بأنهم يعيشون من قطع الطرق ومداخلة البدو الرحل نهبة القوافل، ولكن الحق أن هؤلاء الرهبان كانوا يحتقرون المال والثراء، وكانت رائحة فضائلهم الزكية تتصاعد إلى عنان السماء...

وكان الملائكة يفدون على هيئة فتيان لزيارة الصوامع وبأيديهم عصيهم كالسائحين، في حين يتخذ الشياطين أشكال الأحباش أو الحيوان ويجولون بين النساك ليضلوهم، وكان الرهبان عندما يذهبون في الصباح يملأون من النبع أباريقهم يرون آثار أقدام الشياطين على الرمال.. وكان المتأمل بعين العقل في حال "طيبة" الروحية يراها في كل وقت، وبخاصة في الليل، ميداناً للقتال بين النعيم والجحيم...

ولما كانت جيوش الشياطين تهاجم الزاهدين هجوماً عنيفاً، كان هؤلاء يدافعون عن أنفسهم بأسلحة الصوم والتقوى والتقشف مستعينين بالله وملائكته، وكانت شهواتهم البدنية تقسو عليهم أحياناً وتخزهم وخزاً يمزق أحشاءهم، فتتجاوب تحت قبة السماء ذات الكواكب صيحاتهم المزعجة وعواء الضباع الجائعة!.. وعند ذلك كانت الشياطين تبدو لهم في صور فتانة تحول دون معرفة حقيقة أمرهم. فيجزع رهبان طيبة إذ

يرون في صوامعهم مشاهد التمتع غير المعروفة حتى عند معاصريهم المترفين المتهتكين، ولكن لما كان الصليب يعلو صوامعهم فإنهم كانوا بنجوة من الغواية، فتتخذ الشياطين النجسة أشكالها الحقيقية وتبتعد في آخر الليل في خجل وغيظ، وكان يحدث أن يرى أحدهم في مطلع الفجر باكياً منتحباً يجيب كل من يسأله بقوله: "إنني أبكي لأن مسيحياً ممن يسكنون هنا قد ضربني بهراوته وردني مفضوحاً!..".

أما شيوخ الصحراء فقد مدوا سلطانهم على الآثمين والجاحدين، وكان صلاحهم في بعض الأحيان صلاحاً مروعاً، فقد أخذوا عن الرسل سلطة معاقبة عصيان الله الحق، وما من يد كانت فوق أيديهم بحيث تنقذ من يصدر حكمهم عليهم، وتناقل الناس، حتى في مدينة الاسكندرية، أن الأرض تنشق لتبتلع الأشرار الذين تمسهم عصى هؤلاء الشيوخ الزاهدين!.. ولهذا كانوا مرهوبي الجانب، يخاف بأسهم كل الذين يحيون حياة الأنس، ولا سيما أهل المساخر والمراقص، والقساوسة المتزوجون وربات الخلاعة!

وقد ظهرت فضيلتهم وامتد نفوذها حتى ذلت لها الوحوش، فكان إذا دنا أجل أحدهم، أقبل أسد وخط له بمخالبه مضجعاً فيعرف القديس بهذا أن الله قد دعاه إليه، فيتجه نحو إخوانه ويقبلهم قبلة الوداع ثم يرقد بانشراح لينام في حضن ربه...

ومذ صعد "انطوان" إلى قمة جبل كلزين بعد أن أربت سنه على المائة، مصطحباً أحب مريديه إليه وهما "مقار وأماتاس" لم يبق في طيبة كلها راهب أبر وأصلح من "بافنوس" كاهن بلدة أنصينا[٢].

حقاً كان أفرايم وسرابيون يحتكمان في كثيرين من الرهبان، وكانا متفوقين في خططهما الروحانية والزمنية، وفي إدارة مناسكهما، أما

بافنوس فكان يراعي أقسى أنظمة الصوم، فيقضي ثلاثة أيام بلياليها لا يذوق طعاماً، وكان يرتدي عباءة من الصوف الخشن، ويجلد نفسه صباح مساء، وطالما انبطح على الأرض ممرغاً جبهته في التراب!

أما تلاميذه الأربعة والعشرون فبعد أن بنوا أكواخهم على مقربة من كوخه اقتدوا به في تقشفه، فأحبهم في يسوع المسيح حباً جما، وكان يحضهم دائماً على التقوى، وكان من أبنائه الروحيين رجال قضوا سنين طويلة في قطع الطرق، ولكن وعظ هذه الأب الصالح هداهم سواء السبيل فدخلوا في سلك الرهبنة، وكانت طهارة عيشهم مما يشرف رفقاءهم، ومنهم طاهي ملكة الحبشة الذي صار بعد أن هداه "كاهن أنصينا" يذرف الدموع بلا انقطاع! ومنهم أيضاً الواعظ فلافيان، وهو رجل عالم بضروب الكتابة وخطيب قدير، على أن أعجب تلاميذ بافنوس كان فلاحاً صغيراً يدعى بولس، ولقب بالساذج لسلامة نيته التي لا حد لها، ولشد ما ضحك الناس من سذاجته، ولكن الله شرفه بأن بعث له بالرؤي الصادقة وأتم عليه نعمة النبوة.

وقف بافنوس حياته على تهذيب أتباعه وتثقيفهم ومزاولة العبادة والبحث والتنقيب في تضاعيف الكتب المقدسة يقتبس منها المواعظ والأمثال، فكان على حداثة سنه موفور الحظ من الفضيلة، فلم تكن الشياطين التي هاجمت الرهبان تلك المهاجمة العنيفة لتجرؤ على الدنو منه، واعتاد أن يجلس في الليل في ضوء القمر، أمام كوخه سبعة من جراء[٢] بنات آوى منصتة بملء الهدوء والسكون، وقيل، بل تلك سبعة من الجن كان استبقاها ببابه لا تتعدى عتبته بقوة قداسته!

* * *

ولد بافنوس في مـدينة الاسكندرية من أبوين نبـيلين وتأدب بأدب الدنيا، ولشد ما أضلته أكاذيب الشعراء! وكانت تلك الأكاذيب مغالطة لعقله مشوشة لأفكاره في ريق صباه، حتى أنه صدق أن طوفانا قد أغرق الجنس البشري كله في عهد ديوقليس! وجادل رفاقه في الدرس في طبيعة الله، وصفاته، ووجوده، ثم استرسل في الخلاعة، وكانت تلك بدعة الخارجين على الدين، وكان لا يذكر ذلك العهد من حياته إلا بخجل واشمئزاز.

واعـتـاد في تلك الأيام أن يقـول لإخوانـه: "لقـد غليت في مـرجل اللذات الكاذبة"!

يريد بذلك أنه أكل اللحم المطبوخ جيداً، واختلف إلى الحمامات العامة!

ودرج على سنن الحياة في عصره حتى بلغ العشرين، وهذه المدة أجدر أن تسمى بالموت منها بالحياة، ولكنه بعد أن تهذب على يدي الكاهن "ماركرين" خلق خلقاً آخر وعاد رجلاً جديداً.

وكذلك تغلغل الحق فيه ونفذ في روحه _كما يقول _كالحسام! فاعتنق عقيدة الصليب وعبد المسيح المصلوب، وبقي سنة أخرى بعد تعميده، بين الخوارج مقيداً بسلاسل العادة.

ففي ذات يوم سمع واعظاً في كنيسة يقرأ من الكتاب المقدس آية مؤداها: "إذا شئت أن تكون كاملاً فاذهب وبع ما تملك وأعط الفقراء ثمنه" فباع من فوره متاعه وأنفق ثمنه في وجوه البر والإحسان وانخرط في سلك الرهبنة.

وفي السنوات العشر التي قضاها بعيداً عن البشر لم يغل في قران الشهوات الجسمانية، بل استفاد بمعالجة نفسه ببلسم التقشف.

***

وحدث يوماً أن فكر كعادته فيما مضى من حياته بعيداً عن الله، وعرض خطاياه الواحدة تلو الأخرى ليدرك شناعتها ، فتذكر أنه رأى منذ بضع سنوات في ملعب الاسكندرية ممثلة ساحرة الجمال تدعى (تاييس) كانت تمثل في الألعاب أدواراً شتى، ولم تكن تتحرج من رقص يثير في النفس بحركاته أقوى الشهوات، ويعرض نفس الرائي لأشنع الرغبات، وتبدو في مشاهد مخجلة، مما ألصقه الكافرون بالزهرة وليداً باسيفه، فكانت تشعل نيران الشهوة في جميع المشاهدين، وكان يختلف إليها الشبان المدلهون والشيوخ الأغنياء المغرمون، يعلقون أكاليل الزهر ببابها ، فكانت ترحب بهم وتنيلهم منها ما يشتهون، فأضاعت بضياع نفسها نفوساً أخرى عديدة.

وكان بافنوس نفسه من المعجبين بها ، فقد أضرمت نار الصبابة في قلبه ، وأشعلت لهيب الشوق في نفسه، فاقترب ذات مرة من بيتها لكنه وقف بالباب وصدته الجبانة واحتجزه التهيب الفطري في الشباب الغض "كان في الخامسة عشرة من عمره" وكان تحرجه كذلك خشية أن يزجر لخلو ذات يده، إذ كان أبواه يأبيان عليه البذل الكثير ، ومن رحمة الله أن قيض له ذلك استنقاذاً له من وزر كبير ، بيد أن بافنوس لم يحمده تعالى لأنه كان في حينها لا يستطيع أن يميز بين ما ينفعه وما يضره ، وكانت نزعاته باطلة.

***

أما وقد ركع بافنوس في صومعته أمام صورة ذلك الصليب المقدس المعلق عليه "فدية العالم" فقد بدأ يحلم بتاييس التي كانت معصيته، وقد فكر طويلاً، بحسب الطقوس الدينية، في قبح الملاذ الدنسة المروعة،

تلك الملذات التي أوحتها إليه هذه المرأة في أيام التخبط والجهل، وبعد تفكير عدة ساعات تراءت له صورة تاييس بجلاء تام، فرآها ثانية جميلة الجسد كما كانت حين نصبت له حبائل الغواية، فظهرت له أولاً مثل "ليدا" راقدة فوق مضجع من حجر يمان، ناكسة الرأس، مغرورقة العينين المملوءتين نوراً، باسمة، ترتجف شفتاها وثدياها، كزهرتين، وزنداها كجدولين، فضرب بافنوس صدره عندئذ وقال:

أدعوك ربي لتشهد على شعوري بشناعة خطيئتي!

ثم غيرت الصورة شيئاً فشيئاً ملامحها، إذ زاد ابتسام ثغرها فافتر عن ألم خفي، وامتلأت عيناها النجلاوان دموعاً ونوراً، وجعل صدرها يعلو وينخفض بالتنهدات وهي تزفر زفيراً يشبه أول هبوب العاصفة، فاضطرب بافنوس لهذا المنظر اضطراباً شديداً أثر في صميم قلبه، وخر ساجداً رافعاً هذه الضراعة:

_ أنت يا من أشربت قلوبنا رحمة مثلما أشربت الرياض ندى الصباح! أيها الإله العادل الرحيم! تباركت وتعاليت! انزع من قلب عبدك هذا الحنان الباطل الذي يؤدي إلى الشهوة، وأوزعني ألا أحب مخلوقاتك إلا فيك وحدك، لأنها تفنى جميعاً وأنت وحدك الحي القيوم، فإذا كنت قد عنيت بهذه المرأة فذلك لأنها صنع يديك، وأن الملائكة أنفسهم ليتوجهون إليها بعناية واهتمام، ألم تكن يا إلهي نفحة من روحك؟ إن عليها أن تضع حداً لما ترتكبه من الخطايا هل أهل البلاد والغرباء، لقد انبعث في قلبي شعور عطف زائد نحوها، إن ذنوبها لفظيعة، وإن مجرد التفكير فيها يروعني إلى حد أن شعر رأسي يقف رعباً. سيبقى إشفاقي عليها عظيماً كذنبها، وكلما ازدادت طغياناً زدت حناناً، إنني أبكي

حين أفكر في أن الزبانية سوف يعذبونها في نار جهنم، التي كلما خبت زادوها سعيراً.

وأنه لذلك إذ رأى ابن آوى صغيراً مقعياً عند قدميه، فأدهشه ذلك كثيراً لأن باب صومعته كان موصداً منذ الصباح، ولاح على الحيوان أنه قرأ ما جال بخاطر الكاهن، فحرك ذنبه كالكلب، فرسم بافنوس علامة الصليب فاختفى الحيوان، وهنالك علم بأن الشيطان قد دخل حجرته للمرة الأولى، فصلى صلاة قصيرة ثم عاد ففكر في تاييس وقال:

ـ يجب أن أنقذها بعون الله!

ثم نام..

***

في صبيحة اليوم التالي، بعد الصلاة، زار القديس "بالمون" الذي كان يعيش في دار قريبة عيشة الترهب والزهد، فألفاه هادئاً مطمئناً ضاحكاً مستبشراً، يفلح حديقته كعادته، وكان بالمون شيخاً هرماً له حديقة تنتابها الوحوش الضارية تلحس يديه، ولم تقربه قط الشياطين، فقال بالمون وهو مستند إلى فأسه:

ـ حمداً لله يا أخي بافنوس!

فأجاب بافنوس:

ـ الحمد لله، والسلام عليك يا أخي!

فرد عليه الراهب بالمون بقوله:

ـ وعليك السلام يا أخي بافنوس!

ثم مسح عرق جبينه بكمه..

ـ أي أخي بالمون، ليكن موضوع حديثنا حمد الإله الحي، الذي وعد

بأن يكون بين الذين يحتمون باسمه، هذا هو غرضي من المجيء لأحادثك عن خطة لتمجيد الرب.

ـ بارك الله في خطتك يا بافنوس مثلما بارك في خسى! فهو في كل صباح يسبغ على نعماءه بسكب الندى على حديقتي، وأن رحمته لتدعوني أن أسبح بحمده على ما يمنحني من القثاء والقرع، دعنا نضرع إليه أن يكلأنا برعايته وينزل على قلبينا السلام! فليس ثم ما يخيف أكثر من المشاعر التي تتعب القلوب فلا يلبث المفتونون بها أن يكون كالسكارى يترنحون يميناً وشمالاً وهم على وشك السقوط المزري في هوة الشقاء، قد تغمرنا هذه الانفعالات بفرح مفرط، والذي ينهمك في هذه الغوايات يكون هزأة تضحك منه البهائم ضحكاً يتردد عالياً في أجواز الفضاء، ولكن قد تطرحنا فتن الروح والحواس في كآبة مضنية، وهذه أشأم ألف مرة من الفرح، أي أخي بافنوس، لست إلا خاطئاً تعساً، ولكني وجدت في أثناء حياتي الطويلة أن ما من عدو أعدى للراهب من الكآبة. أعني الكآبة المستعصية التي تغشى الروح كالضباب وتحجب نور الله.

وما من شيء مثلها ينافي الراحة والسلامة، وأن أعظم نصرة للشيطان أن ينفث الزيغ والنزعات السوداوية في قلب رجل متدين، فلو أنه بعث لنا التجارب والغوايات في سياق الفرح والمسرة لما كان مخوفاً نصف هذا الخوف، أو لم يظهر لأبينا "أنطوان" طفلاً أسود جميلاً إلى حد أن رؤيته استذرفت دموعه؟ على أن أبانا نجا بمعونة الله من الوقوع في حبائل الشيطان، وإنني لأعرفه مدى الزمن الذي قضاه بيننا طروباً منشرح الصدر مع تلاميذه ولم يك قط كئيباً، لكن ألم تأت يا أخي

لنتحدث عن خطة هيأتها في نفسك؟ إن اطلاعك إياي عليها فضل منك متى كانت لتمجيده تعالى.

_ أخي بالمون، إنني راغب حقيقة في تمجيد الله، فأشدد أزري بمشورتك، فأنت عالم مستنير لم يحجب الإثم قط نور فطنتك!

_ يا أخي بافنوس، إنني لست جديراً بأن أحل شراك نعلك! فإن آثامي كرمال الصحراء لا تحصى ولا تعد، غير أني بلغت من الكبر عتياً فلن أرفض أن أكون عوناً لك بتجاربي.

_ إذن سألقي إليك همومي وأحزاني يا أخي بالمون، فإني ليحزنني التفكير في أن هناك بمدينة الاسكندرية غانية تدعى تاييس تعيش في الخطيئة ويلاً على الناس ومذلة لهم.

يا أخي بافنوس إن هذه في الحقيقة لرجس محزن، وإن النساء اللاتي يحيين هذه الحياة بين الوثنيين لكثيرات، فهل فكرت في علاج لهذا الداء؟

_ سأذهب يا أخي بالمون في طلب هذه المرأة بالاسكندرية، وسأهديها إلى الحق بعون الله، هذه هي خطتي، فهل تقرني عليها يا أخي؟

_ لست سوى آثم منكود يا أخي بافنوس، لكن أبانا أنطوان اعتاد أن يقول: "حيثما كنت، لا تتسرع بمغادرة مكانك إلى مكان سواه".

_ أترى يا أخي بالمون خطأ ما في مسعاي الذي اعتزمت؟

– يا بافنوس الوديع، أعاذني الله من اتهام مقاصدك يا أخي! لكن أبانا أنطوان قال أيضاً: "كما أن السمك الذي يوضع فوق أرض جافة يموت، كذلك يضل النساك الذين يغادرون صوامعهم ويختلطون بالعالم فيبتعدون عن طريق الخير".

وبعد هذا القول نكت الشيخ بالمون الأرض بمعوله، وبدأ يهز التربة حول شجرة تفاح مثقلة بثمارها، وبينما كان يحفر قفزت وعلة متخطية سياج الحديقة عائثة بالأوراق ووقفت في دهش بلا حراك، مرتعدة المأبض، ثم بلغت الشيخ الهرم بوثبتين وغطت رأسها البديع في حجر صديقها، فقال بالمون:

_ أسبح بحمد الله في غزالة الصحراء!

ثم مضى إلى كوخه يتبعه الحيوان الرشيق فأحضر خبزاً أسود أكلته الغزالة من راحته.

ولبث بافنوس شاخصاً ببصره إلى حجارة الطريق، ثم قفل راجعاً ببطء إلى صومعته يفكر بعناية فيما سمع وقال، وقد تنازعت ذهنه الأفكار:

_ لعمري أن هذا الزاهد نافذ الرأي بصير، وإنه لحصيف حذور، فقد ارتاب في صواب فكرتي، غير أنه من القسوة أن أتخلى بعد الآن عن تاييس للشياطين الذين يحظون بها، اللهم اهدني سواء السبيل وهيئ لي من أمري رشدا.

وبينما كان في طريقه رأى كيرواناً واقعاً في شباك نصبها صياد على الرمال، وأدرك أن الطائر أنثى، لأن الذكر أقبل محلقاً حول الشبكة وقطع عيونها واحدة بعد واحدة بمنقاره إلى أن أحدث فتحة كافية لخروج رفيقته ونجاتها، فتأمل رجل الله هذا المنظر، ولكونه يستطيع، بفضل إيمانه وتقواه، قراءة خفايا الأشياء، تمثل له أن الطائر الأسير تاييس، واقعة في حبائل الرذائل، وعلى ذلك _طبقاً لمثل الكيروان الذي قطع عيون الشبك بمنقاره _يجب أن يقطع بالأقوال المؤثرة البليغة القيود

الخفية التي تربط تاييس بالكبائر، ولهذا حمد الله وثبت على تصميمه الأول، ولكنه عندما رأى الكيروان واقعاً هو نفسه، منشباً أظفاره في الشبك الذي قطعه، عاد ثانية إلى تردده وارتيابه.

فبات مسهداً أرقاً لم يذق طعم النوم سواد ليله، ورأى عند الفجر رؤيا، ظهرت له تاييس مرة أخرى، لم تبد على وجهها أية علامة للأهواء الضالة أو الملاذ التي يمازجها الإثم، ولا كانت مرتدية كعادتها شفوفها المهلهلة، بل كانت في بردة تغطيها كلها وتحجب بعض وجهها بحيث لم يستطع الراهب أن يرى سوى عينين تفيضان بالدموع السخينة البيضاء.

بدأ يبكي لرؤية هذا المشهد ويعول أعوالاً، وجرى في ظنه أن هذا الحلم وحي من عند الله، فطلّق التردد، ونهض لساعته وتناول عصا معقدة، هي رمز العقيدة المسيحية، وغادر صومعته وأغلق الباب بعناية حتى لا تدنس الحيوانات التي تعيش فوق الرمال أو الطيور التي تحلق في الفضاء، الكتاب المقدس الذي حفظه في رأس مضجعه! ودعا الشماس فلافيان ليستودعه تلاميذه الثلاثة والعشرين، واكتفى بوضع عباءة طويلة من الوبر، وسار والنيل قاصداً أن يمشي محاذياً الشاطئ الليبي حتى المدينة التي أسسها اسكندر المقدوني، وبدأ السير عند انبثاق الفجر فوق الرمال مستهيناً بالتعب والجوع والعطش، وكانت الشمس تحت الأفق حين رأى النهر الرهيب زاخر الموج مخضوباً بالدماء بين صخور الذهب والنيران، سار على الشاطئ مستعطياً بالخبز لوجه الله عند أبواب الأكواخ المنفردة، متلقياً الانتهار بابتهاج، غير خائف من اللصوص ولا الوحوش الضارية، ولكنه توخى أن يتنكب القرى والأمصار التي في طريقه، فقد كان يخشى أن يلقى الأولاد يلعبون أمام منازل

آبائهم بالكعاب، أو يرى الصبايا في جلابيب زرقاء، يملأن جرارهن مبتسمات، فكل هذه أشياء خطرة على الناسك تركبه الغرر! بل كان يتهيب أحياناً أن يقرأ في الكتاب المقدس أن "معلم اللاهوت"[4] ذهب من مدينة إلى مدينة وتعشى مع تلاميذه! فالفضائل التي يطرزها الرهبان بعناية على نسيج إيمانهم، سريعة التلف بقدر ما هي بديعة، فإن نسمة من نسمات الحياة العادية قد تقتم ألوانها الزاهية، ولهذا امتنع بافنوس عن دخول المدن خشية افتتان يصيب القلب، أو جور يلم بالنفس من جراء مرأى البشر.

فانطلق يضرب في الطرق الموحشة، وكلما أمسى فداعب النسيم شجر التمر الهندي، ارتجف فأسدل غطاء رأسه على عينيه حتى لا يشاهد جمال الكائنات!

وبعد مسير ستة أيام وصل إلى مكان يدعى "سيلسيليه" حيث يجري النهر في واد ضيق تحده من جانبيه جبال الجرانيت، هناك نحت المصريون أوثانهم، أيام كانوا يعبدون الأبالسة، فوجد بافنوس رأساً هائلاً لأبي هول لا يزال قائماً على الصخور، فخوفاً من أن يكون إبليس قد نفخ فيه من روحه الشيطانية، رسم علامة الصليب وفاه باسم يسوع، فطار للحال خفاش من إحدى أذني الصنم، فعلم بافنوس أنه قد طرد روح الشر التي سكنت التمثال عدة أجيال! فازدادت حماسته ورفع حجراً ضخماً قذفه في وجه التمثال! فاستبان إذ ذاك في تقاطيعه كآبة حركت في نفس بافنوس عامل الحنان والشفقة، والواقع أن صورة الحزن البادية على هذا الوجه الحجري كانت كفيلة بأن تؤثر في أقسى الناس قلوباً وأغلظهم أكباداً وأشدهم جموداً.

من أجل هذا خاطب بافنوس أبا الهول بقوله:

_ أيها الوحش! اتبع مثال الجياد والمعز الآدمية التي رآها أبونا أنطوان في الصحراء، واعترف بألوهية يسوع، لكيما أباركك باسم الأب والابن، والروح القدس!

ولما فاه بذلك سطعت عينا أبي الهول بضوء وردي، وارتعشت جفون الأسد الغليظة، وباحت الشفتان الصوانيتان بتأوه _كصدى صوت إنسان _باسم يسوع المسيح... وعندها مد بافنوس يده اليمنى وبارك أبا الهول سيلسيليه!.

* * *

استأنف سفره بعد ذلك، وانفسح الوادي أمامه فرأى أطلال مدينة عظيمة لا تزال المعابد باقية فيها، تسندها الأصنام بدل العمد، وقد ألقت هذه الأصنام نظرات طويلة ثابتة على بافنوس، امتقع لها واضطرب! وهكذا سار سبعة عشر يوماً، كان غذاؤه الوحيد فيها بعض الأعشاب والثمار يأكلها فجة غير ناضجة، وكان يقضي ليله في خرائب القصور مع قطط برية وجرذان فرعونية، وخلائق لها صدور أنثوية وأعطاف مائية كأنها عرائس بحرية، لكن بافنوس أدرك أنها خرجت إليه من الجحيم فأقصاها برسم علامة الصليب على وجهه!!

وفي اليوم الثامن عشر رأى كوخاً حقيراً بعيداً عن القرى مصنوعاً من سعف النخيل، مطموراً إلى نصفه في الرمال التي سفتها رياح البادية، فجاءه آملاً أن يجده مأهولاً ببعض المتنسكين الصالحين، ولم يكن له باب، فرأى فيه جرة وركام بصل وفرشا من الهشيم فقال في نفسه:

_ هذا متاع ناسك، والزاهدون لا يبعدون كثيراً عن أكواخهم، فلا

ألبث أن ألقى الرجل وأرى أن أهب له قبلة السلام مقتدياً بالقديس المتنسك "أنطوان" الذي عانق "بولس الزاهد" ثلاث مات وهو مار!! وسوف نتكلم في الأبديات، وربما أنزل الله علينا خبزاً بواسطة غراب فيتفضل بدعوتي لتناول شيء منه!

ثم دار حول الكوخ معللاً نفسه بهذا الأمر باحثاً عن الناسك، ولم يسر إلا قليلاً حتى رأى رجلاً متربعاً على ضفة النيل، وكان الرجل عارياً، وشعر رأسه ناصع البياض كلحيته، وكان لون جسده شديد الحمرة كلون الآجر، فلم يشك بافنوس في أنه هو الناسك، وحياه بتحية الرهبان المعتادة عند اللقيا:

_ السلام لك يا أخي! أمتعك الله بلذات النعيم المقيم!

فلم يجب الرجل، ولبث بلا حراك كأنه لم يسمع، فظن بافنوس أن سكوته ناشئ عن حالة الانجذاب الذي اعتاده القديسون، فركع بجانب الرجل المجهول، مشبك الأنامل، وظل هكذا يصلي حتى الغروب، ولما رأى أن رفيقه لم يحرك ساكناً قال:

_ إذا كنت قد فرغت يا أبت من حالة التجلي التي أراك فيها، فباركني باسم سيدنا المسيح!

فأجابه الرجل دون أن يلتفت إليه:

_ أيها الغريب! لا علم لي بما تعنيه، ولا أعرف هذا السيد المسيح!

فصاح بافنوس:

_ يا سبحان الله! أتجهل من أنبأت به الأنبياء، واعترفت باسمه الرسل والشهداء، وعبده قيصر نفسه؟ ومنذ وقت قصير انطقت أبا الهول بتمجيده، أفيمكن أنك لا تعرفه؟

ـ نعم يا صاحبي هذا ممكن! وقد يكون يقيناً إذا كان في الدنيا يقين.

فدهش بافنوس ورثى لشدة جهل هذا الرجل وقال له:

ـ إذا لم تكن تعرف السيد المسيح فمظاهر تقواك لا تجديك فتيلاً، ولن تنال الحياة الأبدية.

فأجابه الشيخ الهرم:

ـ عبثاً يأمل المرء، سواء سعى أو لم يسع! وسيان عندي الحياة والموت!

ـ وا عجبا! أترغب عن الحياة الخالدة؟ ألست تسكن صومعة في هذا القفر مقتدياً بالزاهدين؟

ـ في الظاهر!

ـ ألا تعيش عارياً محروماً كل شيء؟

ـ في الظاهر!

ـ الست تتغذى بالجذور؟ ألست متعلقاً بأهداب العفة؟

ـ في الظاهر!

ـ أو لم تنبذ لذات العالم؟

ـ الحق أني زهدت فيها لأني رأيتها شغل الناس الشاغل!

ـ إذن أنت مثلي في الزهد والتقشف والطهر، ولكنك لست مثلي في محبة الله، وطلب سعادة السماء، فلماذا تتمسك بالفضيلة إذا لم تكن تؤمن بالمسيح؟ لماذا تحرم نفسك متاع الدنيا إذا لم تكن تطمع في نعيم الآخرة؟

ـأيها الغريب! إنني لا أحرم نفسي شيئاً، ويسرني أني اهتديت إلى عيشة راضية، وإن كانت الحياة خلواً من الطيب والرديء جميعاً، والحق

أن الحياة ليس فيها شيء مما يقال له شرف وعار، وعدل وظلم، ولذة وألم، وحسن وسوء، ولكن الناس خصوا هذه الأشياء بأوصافها كما يعطي الملح للطعام مذاقاً خاصاً.

_ ففي رأيك إذن أن ليس ثمة يقين؟ إنك تنكر الحقيقة التي نشدها الوثنيون أنفسهم، إنك غارق في جهالتك كما يغرق الكلب المضنى من التعب في الوحل!

_ أيها الغريب! لا فائدة من سبك الكلاب والحكماء! إنّا لا ندري ماهية الكلاب، ونجهل ماهية أنفسنا، ولسنا ندري شيئاً...

- أتراك إلى جماعة اللا أدريين تنتسب! أأنت إذن أحد أولئك البائسين المعتوهين، الذين ينكرون الحركة والسكون معاً، ولا يميزون بين نور الشمس الساطع وظلام الليل الحالك؟

_ أجل إني " لا أدري" يا صاحبي، وأنتسب إلى طائفة، إذا كانت في رأيك مدعاة للسخرية، فهي في رأيي جديرة بالاعتبار، لأن الأشياء نفسها لها مظاهر عديدة، فأهرام منفيس تبدو في مطلع الفجر مخاريط من ضياء وردي، لكنها تلوح عند غروب الشمس مثلثات حالكة السواد في السماء المتقدة كشعلة من نار، فمن ذا الذي يستطيع أن يسبر غورها ويدرك كنهها؟ أنت تعيرني إنكار الظواهر، والظواهر هي وحدها الحقائق التي أسلّم بها، تبدو لي الشمس منيرة، ولكن طبيعتها خافية علي، وأرى النيران تشتعل لكني لا أعرف كيف ولم، إنك عاجز عن إدراك فكري، ولكن هذا لا يهمني.

_ أسألك ثانية لماذا تعيش مكتفياً بالبلح والبصل في البادية، لماذا تقاسي شظف العيش والحرمان؟ إنني أتحمل مثل هذه الشدائد، وألقى ما

تلقى، ولكني أفعل هذا إرضاء لله تعالى لكيما أستأهل في الوحدة السعادة الأبدية! فمن المعقول أن يتعذب المرء لقاء أجر كبير، ولكن من الجنون أن يعاني الإنسان بمحض إرادته مشقات لا فائدة منها، فلو لم أكن مؤمناً _غفرانك لهذا التجديف أيها النور الذي لم يولد _فلو لم أكن مؤمناً بحقيقة تعاليم الله بلسان أنبيائه وببينة ابنه، وأعمال رسله، وأحكام المجامع وشهادة الشهداء المختومة بدمائهم، ولو لم أعلم أن تعذيب الجسد واجب لتطهير النفس، أو كنت مثلك أجهل أسرار الدين، لعدت تواً إلى العالم وسعيت لإحراز الغنى لأعيش في ترف ورفاهية كالسعداء فيه، ثم أصيح في اللذات قائلاً: هلم يا بناتي! هلم يا خوادمي! تعالين جميعاً واسكبن خموركن ورحيق غرامكن وعطوركن، ولكنك أيها الشيخ المأفون تمنع نفسك كل الطيبات فتخسر دون أن تكسب شيئاً، تعطي ولا أمل لك في أن تسترد شيئاً مما أعطيت، وتقلد بسخف أعمال نساكنا العجيبة كقرد وقح يشبج على الحائط معتقداً أنه يحاكي أمهر الراسمين، فيا أغبى الناس ما حجتك؟

قال بافنوس هذا بحدة وعنف، لكن الشيخ لبث هادئاً، وأجاب بصوت رقيق:

_ وماذا يهمك من حجة كلب راقد في الوحل، وقرد مفسد؟

ولما لم يكن لبافنوس سوى غرض واحد، هو تمجيد الله، فقد ذهب غضبه، واعتذر بخشوع قائلاً:

_ اعف عني يا أخي الشيخ! أن غضبتي للحق حملتني على تجاوز حدود الأدب، ويشهد الله أني ما مقت شخصك ولكنني استنكرت خطيئتك، ولشد ما يؤلمني أن أراك تتسكع في ظلمات الضلالة مع أني

أحبك في المسيح، ورغبتي في خلاصك تشغل بالي، تكلم! ادل إلي ببراهينك، إني مشوق إلى معرفتها لأفندها.

فأجابه الشيخ بهدوء:

ـ إن ميلي إلى الكلام كرغبتي في السكوت، على أني سأدلي إليك بحجتي دون أن أسألك حججك، فإنك لن تستميلني بأي حال من الأحوال، أنا لا أبالي بسعادتك أو شقائك، وسواء لدي السبل التي تتجه إليها آراؤك، وكيف أحبك أو أكرهك، والميل والنفور كلاهما لا يليق بالحكيم؟

أما وقد سألتني فاعلم أن اسمي "تيموكليس"، وإنني قد ولدت في "قوص" من أبوين أثريا من الصناعة، وكانت صناعة أبي تسليح السفن، وكان ذكاؤه يضارع كثيراً ذكاء الاسكندر الملقب بالأكبر، وكان لي أخوان اتخذا صناعة أبينا، أما أنا فقد احترفت الحكمة، وأكره والدي أخي الكبير على الزواج بامرأة كورية تدعى "تيماسا"، فلم ترقه ولا طابت له عشرتها، ثم أن تيماسا هذه أغرت شقيقنا الصغير على عشق أثيم. ولم تلبث هذه العاطفة أن تحولت إلى جنة مستعرة وولع شديد، على أن الكورية أبغضتهما كليهما وهامت بزمار كانت تخلو به ليلاً في مخدعها حيث ترك ذات صباح تاجه الذي اعتاد لبسه في المأدب، فلما وجده أخواي أقسما على قتل صاحبه، وفي اليوم التالي قتلا الزمار ضرباً بالسياط، ولم تشفع له دموعه ولا توسلاته، ففقدت زوج أخي رشدها من القنوط، وأصبح هؤلاء الثلاثة البائسون كالوحوش يهيمون على شواطئ قوص، وكانوا من شدة جنونهم يعوون كالذئاب، يعلو الزبد أشداقهم، وتحدق في الأرض أبصارهم، والأطفال يضجون من حولهم ويرمونهم

بالمحار، إلى أن ماتوا ودفنهم أبي بيديه، ولم يلبث أن أبت معدته تناول الطعام فمات جوعاً، مع أنه كان لوفرة غناه يستطيع شراء ما يشتهي في أسواق آسيا من لحم وفاكهة، وكان يتميز غيظاً من توريثي ثروته التي بددتها بعد موته في الأسفار، فزرت إيطاليا وبلاد اليونان وإفريقيا، فلم ألق قط عاقلاً ولا سعيداً، درست الفلسفة في أثينا والاسكندرية، حتى أصابتني جلبة الحوار بالدوار، ولما وصلت أخيراً إلى الهند، رأيت على شاطئ نهر الكانج رجلاً عارياً، متربعاً في مجلسه لم يفارقه منذ ثلاثين عاماً، وقد علقت بجسمه الضامر النباتات المتسلقة، وعششت الطيور في شعره، وهو باق حياً، ذكرت لرؤيته تيماسا والزمار وأخوي وأبي، وأدركت أن هذا الهندي حكيم، وقلت لنفسي: "الناس يتألمون لأنهم محرومون ما يظنونه خيراً، وإذا نالوه خشوا أن يفقدوه، أو لأنهم يعانون ما يظنونه شراً، فإذا بطل كل اعتقاد من هذا القبيل زالت جميع الشرور"، هذا هو السبب الذي حال دون اعتباري شيئاً نافعاً، وحملني على الزهد في طيبات هذه الدنيا، وجعلني أعيش في وحدة وسكون اقتداء بالهندي.

وكان بافنوس يصغي بانتباه لحكاية الشيخ، فأجاب:

_ حقاً يا تيموكليس القوصي، إن كل ما قلته غير بعيد عن الصواب، فمن الحكمة ازدراء متاع هذه الدنيا، ولكن ازدراء النعيم الأبدي، وتعويض النفس بذلك لغضب الله، لمن الجنون، إنني أرثي لجهلك يا تيموكليس، وسأهديك إلى الحق، وأقودك إلى محجة الصواب، فإنك إذا علمت أن الله موجود في ثلاثة أقانيم، أطعت هذا الإله كما يطيع الابن أباه...

فقاطعه تيموكليس بقوله:

_ كفى أيها الغريب! كفى شرحاً وتبياناً لتعاليمك، لا تحاول أن تكرهني على قبول آرائك، فكل جدل عقيم، ورأيي ألا يكون لي رأي، إني أعيش خلواً من الهموم ما دمت لا أفاضل بين الأشياء، سر في طريقك إذن ولا تعالج تحويلي عن الجمود المحمود الذي يغمرني كأني في حمام منعش بعد مشاغل أيامي المرهقة.

وكان بافنوس راسخ القدم في أصول الإيمان، ولشدة اختباره لقلوب البشر عرف أن تيموكليس الشيخ قد عدته رحمة الله، وأن يوم خلاص تلك النفس الخاسرة لم يحن بعد، فلم يجب خشية أن تنقلب التبصرة تهلكة، فقد يحدث أن مجادلة الكافرين تزيدهم تمرداً وعصياناً بدلاً من أن تردهم مؤمنين، ولهذا ينبغي لمن هم على الحق أن يذيعوه بفطنة وحذر.

فقال: إذن فالوداع يا تيموكليس التعس!

ثم تنهد تنهداً عميقاً واستأنف سراه تحت ستر الغسق.

رأى في الصباح سرباً من "أبي قردان" واقفاً على ساق واحدة لا يتحرك عند حافة المياه التي تعكس ظل أعناقه الوردية، وقد بسطت أشجار الصفصاف أوراقها الغضة الرمادية على الشاطئ إلى مدى بعيد، وكانت الكراكي تطير على شكل مثلث في السماء الصافية الأديم، ومن بين عيدان القصب يتردد نواح مالك الحزين، وإلى آخر ما تستطيع العين أن ترى يتلاطم النهر في لجته الخضراء وفوقها الأشرعة البيضاء كأنها أجنحة الطير. وهنا وهناك تنهض على الشاطئ بيوت بيضاء يغشاها ضباب خفيف، وفي ظلال الجزر المثقلة بالنخيل والأزهار والثمار يدوي صياح أسراب البط والأوز والنحام والشرشير، وإلى اليسار يمتد الوادي

الخصيب حتى الصحراء تتمايل حقوله وجناته طرباً، والشمس تصبغ السنابل بالذهب، وقد فاح عرف التربة المخصبة وعبق شذاها.

ولما رأى بافنوس، في روعة هذه المنظر، برهان وجود ربه، خرّ ساجداً يقول:

ـ تبارك الله الذي وفقني في سفري! سبحانه أنت الذي أنزل نداه على أشجار التين، أنزل غفرانك يا إلهي على روح تاييس التي برأتها، وفي أحسن صورة صورتها، لا تقل عن زهر الخمائل وأشجار البساتين! دعها يا إلهي تزهر بعنايتي شجيرة ورد بلسمية، في بيت مقدسك السماوي!

وكان كلما رأى شجرة مزهرة أو طائراً غرداً، فكر في تاييس، وهكذا سار على ضفة النيل اليسرى، بين البقاع الخصبة الآهلة، حتى وصل بعد أيام إلى الاسكندرية، التي لقبها الإغريق بالجميلة والذهبية، وكان الفجر قد تبلج منذ ساعة فلاحت له المدينة الرحبة العظيمة من مرتفع، تتلألأ قبابها في ضباب الصباح الوردي، فوقف وضم ذراعيه إلى صدره، وقال:

ـ إذن، هذا هو المقر البديع الذي تمخض بي في الخطيئة!.. وهذا هو الهواء الذي منه استنشقت العطور السامة! وهذا بحر الشهوات الذي فيه سمعت أغاني بناته! هو ذا مهدي الجسدي وموطني العالمي! وأنه في نظر الناس لمهد الورد والزهر، ووطن المجد والفخر، ليس عجباً أيتها الاسكندرية أن يعزك بنوك كأم رؤوم، وقد نشأت في أحضانك ذات الرواء وشببت في ربوعك ربة البهاء، بيد أن الزاهد يستخف بالطبيعة، والصوفي يزدري الظواهر، والمسيحي ينظر إلى وطنه الدنيوي كأنه منفى، والراهب يعرض عن الدنيا! أيتها الاسكندرية! لقد حولت قلبي

عنك، فأنا أكرهك وأمقتك لغناك، لعلمك، للذاتك، لجمالك! لعنة الله عليك يا معبد الشياطين، يا مضجع الفجار! يا منبر الأريوسيين الموبوء، عليك اللعنة! وأنت يا ابن السماء، يا من هدى أبانا الناسك "القديس أنطوان" لما أتى من مجاهل الصحراء ودخل معقل الوثنية هذا ليثبت إيمان المهتدين، ويشد أزر المستشهدين، يا ملك الرب الجميل، أيها الطفل غير المنظور. يا نفحة الله الأولى، حلق أمام عيني وعطر برفرفة جناحيك الهواء الفاسد الذي سأستنشقه عما قريب مع مردة الشر وأبالسة الظلام.

قال ذلك واستمر في طريقه، ودخل المدينة "من باب الشمس" الحجري الشامخ، وكان على تساميه وخيلائه يتربع في ظله الفقراء البائسون، يستجدون المارة وهم يتأوهون أو يبيعونهم التين والليمون.

وكانت هناك عجوز جالسة في أطمار بالية، فأمسكت بمسوح الراهب وقبلتها وقالت:

_ أي رجل الرب! باركني ليباركني الرب! لقد ذقت من العيش أمره، وكابدت آلاماً كثيرة في هذه الدنيا، وأريد أن أحظى بالمسرات في الآخرة، إنك آت من عند الله أيها القديس، لذلك أعد تراب قدميك أغلى من التبر.

فقال بافنوس:

الحمد لله!

ورسم بيده علامة الفداء على رأس العجوز، وسار في طريقه، على أنه لم يكد يبتعد قليلاً حتى اعترضته شرذمة من الأطفال جروا وراءه مستهزئين، ورجموه بالطوب وهم يصيحون:

_ يا للراهب الخبيث! إنه أسود من القرد الأسخم، وأقبح التحاء من

تيس! يا لله من غبي مستميت! لماذا لم ينصبوه لعيناً° في حقل لتخويف العصافير؟ لكن لا! إن وضعه هناك يجلب البرد على زهر اللوز! إنه يجلب النحس والشؤم، اصلبوا الراهب! اصلبوه!

وانهالت عليه الحجارة مع صيحاتهم، فتمتم بافنوس:

_ اللهم بارك في هؤلاء الأطفال المساكين!

واستمر في طريقه مردداً ما يجول بخاطره:

_ لقد احترمتني تلك العجوز، وامتهنني أولئك الصبيان، وكذا الشيء الواحد يقدر على وجوه مختلفة من الناس الذين هم عرضة للخطأ في أحكامهم، فيجب التسليم بأن الشيخ تيموكليس مع أنه كافر، لم يكن خلواً من الإدراك، إذ أنه يعرف أنه محروم النور على الرغم من كونه أعمى، إن كل شيء في هذه الدنيا سراب خادع، وظل زائل، ولون حائل، والثبات لله وحده.

* * *

اجتاز بافنوس المدينة سريع الخطا، وتذكر بعد غيبته عشر سنوات كل حجر فيها، وكان كل حجر لديه فضيحة تذكره بمعصية، فطفق يطأ حجارة الطريق حافياً بعنف، وكان يبتهج كلما تركت قدماه الممزقتان أثر دمائهما عليها.

ثم سار عن يمين أروقة معبد السرابيس الفخمة، في طريق محفوف بالقصور المنيفة التي كانت كأنها تنطف عطراً، وهناك أشجار الصنوبر والاسفندان شامخة برؤوسها فوق الطنوف الحمراء وقواعد التماثيل المذهبة، ورأى من خلال الأبواب تماثيل من النحاس في أروقة من المرمر، وخيوطاً من الماء النافر ترقص بين أغصان الشجر، ولم يك ثمة صوت

يكدر صفو سكون هذه الوحدة الزائفة، سوى أنغام ناي بعيدة، فوقف الراهب أمام منزل صغير بديع التقسيم، قائم على أعمدة كأنها لحسن صنعها فتيات، ومزدان بتماثيل نصفية من البرونز لأشهر فلاسفة اليونان، عرف بافنوس منهم أفلاطون وسقراط وأرسطو وأبيقور وزينون.

قرع الباب ولبث ينتظر وهو يفكر في "أن من العبث أن يمجد المعدن هؤلاء الحكماء المزيفين، فترهاتهم باطلة، وأرواحهم في نار الجحيم تلظى، وافلاطون الشهير نفسه الذي ملأ الأرض بدوي فصاحته، يجادل الآن الزبانية في جهنم"!!!

ففتح الباب زنجي، ولما رأى رجلاً حافي القدمين يطأ فسيفساء العتبة قال بخشونة:

_ اذهب أيها الراهب الهزأة، واستجد في غير هذا المكان، ولا تنتظر حتى أطردك بالنبوت.

فأجابه كاهن أنصيبا:

_ لا أسألك شيئاً إلا أن تأخذني إلى سيدك نسياس.

فأجابه العبد وهو يمعن في حنقه:

_ حاشا لسيدي أن يلقى الكلاب أمثالك.

فأجابه بافنوس:

_ تفضل يا بني وأفعل ما طلبته إليك، أخبر مولاك أني راغب في رؤيته.

فصاح البواب الساخط متهيجاً:

_ اخرج من هنا أيها المستجدي الملحاح!

ولكزه العبد بعصاه، فتلقى الضربة على وجهه ساكناً ساكتاً، وكرر قوله بلطف:

ـ أرجو يا بني أن تؤدي رسالتي إلى سيدك.

فارتجف البواب، وقد أوجس خيفة مما رأى، وتمتم قائلاً:

ـ ترى من يكون هذا الرجل الذي لا يخشى الألم؟

وانطلق ليخبر مولاه.

كان نسياس خارجاً من الحمام، والجواري الجميلات يمسحن جسده بأدوات التدليك، وكان رجلاً رشيقاً بشوشاً، يجمع بين حلاوة الدعابة ومرارة التهكم، فلما أبصر الراهب، تقدم إليه مفتوح الذارعين هاتفاً:

ـ هذا أنت يا بافنوس! رفيقي في طلب العلم، صديقي، أخي! آه! لقد عرفتك مع أنك ـ والحق يقال ـ قادم في صورة أشبه بالوحوش منها بالبشر، أتذكر أيام كنا ندرس معاً النحو والبيان والفلسفة؟ كنت في ذلك الحين ذا مزاج فظ وحشي، ولكنني أحببتك لإخلاصك الذي لا تشوبه شائبة، وكنا اعتدنا أن نقول عنك أنك تنظر إلى الكائنات بعيني جواد غضبان نفور، ولم يكن جماحك ونفورك بالشيء المدهش، فلم تكن على جانب كبير من رقة القدماء ولكن كرم أخلاقك لم يكن له حد، لم تكن تضن بمالك ولا تبخل بحياتك، وكنت على خلق شاذ وعبقرية حببتك إلي وجعلتني أميل إليك كل الميل، أهلاً بك أيها العزيز بافنوس، ومرحباً بك بعد فراق عشر سنين! لقد غادرت الصحراء وزهدت في خرافات المسيحية وخزعبلاتها والآن تعود إلى حياتك الأولى، إن اليوم ليوم ميمون؟

ثم التفت إلى النساء وقال:

ـ يا كروبيل ويا مرتال ضمخا بالطيب قدمي ضيفي العزيز ويديه ولحيته:

فابتسمتا وأقبلتا عليه بإبريق وقناني ومرآة معدنية، ولكن بافنوس أوقفهما بإشارة الآمر، ثم غض من بصره كي لا يراهما، لأنها كانتا عاريتين، وجاءه نسياس بالوسائد، وقدم إليه طعاماً وشراباً مختلفي الألوان، فرفضهما بافنوس كلها بازدراء، وقال:

ـ أعلم يا نسياس أنني لم أهجر ما سميته خطأ بالخرافات المسيحية، والتي هي بلا ريب حقيقة الحقائق: "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله، كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان، فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس..."[٦].

فأجابه نسياس وهو يرتدي جلباباً معطراً:

ـ أتظن يا عزيزي بافنوس أنك تدهشني بذكر أقوال مشوشة فارغة، لا معنى لها ولا طعم! أنسيت أنني أنا نفسي فيلسوف إلى حد ما؟ أيخيل إليك أنك تستطيع إقناعي ببعض خرق مزقت من ثوب أميليوس الأرجواني، في حين أن أميليوس وبورفير وافلاطون في أوج مجدهم ما استطاعوا إقناعي. إن المذاهب التي أنشأها الحكماء ليست سوى حكايات اختلقت لتسلية طفولة الناس الخالدة، ويجب أن نلهو بها كما نلهو بحكايات الحمار، ودن النبيذ، وماترن الأفيوسي، أو أية إسطورة أخرى من الأساطير الميلزية.

ثم أخذ بذارع ضيفه وقاده إلى بهو فيه آلاف من أوراق البردي مركومة في سلال وقال:

ـ هذه مكتبتي، وهي تحوي شيئاً يسيراً من الآراء التي ابتدعها الفلاسفة لتفسير ألغاز هذا الكون. إن مكتبة الاسكندرية بكل غناها لا تحويها كلها، وأأسفاه! ليست هذه سوى أحلام قوم مرضى!

وأرغم ضيفه على الجلوس على مقعد من العاج، وجلس هو أيضاً، فألقى بافنوس على الكتب نظرة المغتم، وقال:

_ يجب أن تحرق كلها!

فأجابه نسياس:

_ إنها تكون خسارة يا ضيفي الكريم! فأحلام المرضى تكون في بعض الأحيان مسلية، فضلاً عن أنه إذا أعدمت كل أحلام الناس وتخيلاتهم فقدت الأرض زينة أشكالها وبهجة ألوانها، وكان نصيبنا جميعاً الرقاد في خمول محزن.

لكن بافنوس استطرد قائلاً:

_ من المحقق أن تعاليم الوثنيين ليست إلا ترهات فارغة، لكن الله، وهو الحق بآيات بينات، قد تجسد وعاش بيننا.

فأجاب نسياس:

_ ما أفخم كلامك عن تجسده أيها العزيز! لعمري أن إلهاً يفكر ويعمل ويتكلم ويمرح حسب الطبيعة، كما أن شأن عوليس العتيق على البحر الأخضر _إن هو إلا إنسان عريق، وكيف يخطر ببالك أن تؤمن بجويتير هذا الجديد، في حين أن صبية أثينا، في عصر بركليس، فرغوا من الإيمان بسميه القديم؟ ولكن دعنا من هذا، إنك لم تأت على ما أظن، للجدل في الأقانيم الثلاثة، فخبرني عما أستطيع القيام به لك أيها الرفيق العزيز.

فأجابه كاهن أنصينا:

_ أعرني حلة معطرة، كتلك التي تلبسها، ومنّ علي بنعال مذهبة وقارورة ملئت زيتاً لأطيب به لحيتي وشعري، وزد على ذلك سفطاً فيه

ألف درهم، هذا ما أتيتك في طلبه يا نسياس حباً في الله وإكراماً لعهد صداقتنا القديم.

فدعا نسياس بجاريتيه كروبيل ومرتال، فأحضرتا أفخر حلة له، وكانت موشاة على الطراز الآسيوي بصور الزهر والحيوان، فأمسكتها المرأتان ونشرتاها بحذق بحيث بدت ألوانها البراقة، وأمهلتهاه حتى يخلع مسوحه التي تغطيه من رأسه إلى قدميه، فأعلن الراهب أنه يفضل تمزيق لحمه إرباً إربا على أن يخلع مسوحه، فسترتا المسوح بتلك الحلة، ومع أن كروبيل ومرتال كانتا من طبقة الرقيق، إلا أنه كانت لهما على الرجال دالة الحسن، فطفقتا تضحكان من الهيئة الغريبة التي أصبح الراهب فيها، ودعته كروبيل مولاها العزيز، بينما كانت واقفة أمامه بالمرآة، وشدت مرتال لحيته، غير أن بافنوس كان يصلي لله، ويغض عنها بصره، ولما احتذى النعال المذهبة وشد السفط إلى حزامه قال لنسياس الذي كان ينظر إليه باسماً:

_ أي نسياس! يجب ألا تكون الأشياء التي تراها معرة في نظرك، كن واثقاً أنني سأحسن استخدام هذا الثوب. وهذا السفط، وهذه النعال، وأعمل بها عملاً صالحاً.

_ لست أظن شراً ولا سوءاً، لاعتقادي أن الناس متساوون في العجز عن فعل الشر والخير، فالخير والشر لا يتعدان حد الظن والتقدير، وليس لدى الحكيم لأسباب الدعوى سوى العادة والعرف، إنني أحبذ الآراء الشائعة في الاسكندرية في عهدنا هذا. وذلك هو سبب اعتبار الناس أياي رجلاً شريفاً أميناً، فاذهب يا صاحبي وتمتع بما أخذت كيف شئت.

لكن بافنوس استحسن أن يطلع مضيفه على حقيقة الأمر، فقال:

_ أتعرف، تاييس، تلك التي تمثل في المسرح؟

_ امرأة جميلة فتانة! وقد كانت يوماً ما عزيزة جداً علي، حتى أني بعت في سبيل هواها طاحونة وحقلين كانا يزرعان حنطة! وأكرمتها بثلاثة دواوين من الشعر مشحونة مراثي سقيمة! حقاً إن الجمال هو أعظم قوة في العالم، فإنه إذا قدر لأحدنا أن يظفر به إلى الأبد، أعار "الخالق" و"الكلمة" و"الخلود" أقل ما يمكن من المبالاة! على أني أعجب يا بافنوس الصالح لمجيئك من أعماق طيبة لتتحدث عن تاييس.

ثم تنهد، فرشقه بافنوس بنظرة الذعر والخوف، لأنه لم يخطر بباله قط أن رجلاً يمكنه أن يقترف مثل هذا الإثم بمثل ذلك الهدوء، وتوقع أن يرى الأرض قد انشقت وابتلعته، لكن الأرض لم تنشق، وبقي الاسكندري الصامت معتمداً رأسه يبتسم بمرارة لتذكارات شبابه المدبر، فوقف الراهب وأجاب بصوت جهوري:

_ اعلم يا نسياس أني أروم بمعونة الله إنقاذ تاييس من حضيض الشهوات الأرضية السافلة، وإشراب قلبها حب المسيح لتكون عروسه، وإذا لم يفارقني الروح القدس، فستغادر تاييس هذه المدينة اليوم لتدخل الدير.

فأجاب نسياس:

_ احذر أن تغضب "الزهرة" إنها إلهة قادرة، إن أنت حرمتها أبدع عبادها، أوغرت صدرها عليك!

فقال بافنوس:

_ إن الله سيقيني ويدفع عني السوء، وعسى ربي أن ينير قلبك يا نسياس، ويرفعك من الهوة التي تتردى فيها.

وخرج، فتبعه نسياس حتى أدركه بالباب ووضع يده على كتفه وهمس في أذنه مكرراً قوله:

_ حذار أن تغضب الزهرة، فانتقامها شديد!

على أن بافنوس لم يعبأ بهذا التحذير وخرج طاوياً عنه كشحه، فلم تبعث فيه أقوال نسياس إلا الاشمئزاز والاحتقار، وقد أحفظه جداً، إذ علم أن صديقه نال حظوة عند تاييس، وخيل إليه أن ارتكاب الخطيئة مع هذه المرأة أشنع وأشد هولاً منه مع أية امرأة أخرى! كان يرى في هذا الشر مخزاة مستنكرة على مثله، وأصبح نسياس عنده مبغضاً حقيقاً باستنزال اللعنات، كان من طبعه كراهية الرجس، ولكنه تمثل هذه الرذيلة فبدت له بأفظع مظاهرها، وما سبق له أن شاطر من صميم قلبه المسيح في غضبه ولا الملائكة في حزنها كما شاطرهم الآن.

وكان كلما فكر في ذلك يزداد ميلاً إلى إنقاذ تاييس من وسط الفجار، وما كان ينقصه إلا أن يراها لينتشلها من بينهم، غير أنه لا مناص له من التريث حيث يعتدل الجو، إذ كانت الشمس لا تزال رأد الضحى، فسار بافنوس في شوارع البلد الآهلة، وقد اعتزم الإمساك عن الطعام في هذا النهار حتى يكون أهلاً لما يلتمسه من عون الله ورضاه، وكان لشدة حزنه لا يجرؤ على دخول كنيسة من كنائس المدينة لعلمه بأنها ملوثة بدنس الآريوسيين الذين قلبوا موائد الرب، وكان امبراطور الشرق يشد أزر هؤلاء الهراطقة الضالين الذين طردوا اثناسيوس بعد أن ألقوه من كرسي أسقفيته، وبثوا الفتن بين نصارى الاسكندرية.

فسار معتسفاً، تارة يلقي بنظره إلى الأرض في اتضاع وخشوع، وتارة يرفع بصره إلى السماء في تجلي الانجذاب، وبعد أن سار قليلاً على غير هدى وجد نفسه على رصيف من أرصفة المدينة، وكان الميناء يضم سفناً عديدة والبحر يموج معجباً بلججه اللجينية الزرقاء، وكان

هناك مركب يحمل في مقدمته "بنت البحر" وقد رفع البحارة مرساه وهم يغنون ويشقون صدور الأمواج بمجاذيفهم ولم تلبث السفينة البيضاء المغطاة باللؤلؤ الرطب، أن أصبحت في عيني الراهب أثراً بعد عين، وأبحرت يقودها ربانها في مضيق حوض "الأينستوس"، وأوغلت في عباب البحر الزاخر تجر وراءها ذيلاً من الزبد.

فقال بافنوس في نفسه:

_ لقد تمنيت أنا أيضاً أن أمخر عباب أوقيانوس العالم رافعاً عقيرتي بالغناء، لكني ما لبثت أن أدركت مبلغ حماقتي فلم تغلبني آلهة البحر على أمري.

ثم جلس على ربطة من الحبال وما لبث أن استغرق في النوم، ورأى رؤيا: خيل إليه فيها أنه يسمع نفخاً في صور، ورأى السماء الحمراء كأنها صبغت بالدم، فعلم أن الساعة قد أتت وحان يوم الحساب، وفيما هو يضرع إلى الله بحرارة، رأى وحشاً هائلاً يتقدم إليه وعلى جبينه صليب من نور، فعرف فيه أبا هول سيلسيليه، فأمسكه الوحش بين فكيه من غير أن يصيبه بأذى وحمله في فمه كما تحمل القطة صغارها وقطع به ممالك عديدة عابراً الأنهار، مجتازاً الجبال، حتى أتى مكاناً قفراً مغطى بالصخور الضخمة والرماد الحار، وكانت الأرض مشققة في عدة مواضع يخرج من فوهاتها لهيب وبخار، فأنزله الوحش على الأرض برفق وقال له:

_ انظر!..

فأشرف بافنوس من حافة الهاوية فرأى وادياً من النيران يتلظى في جوف الأرض بين جرفين من الصخور السوداء، وشاهد الزبانية تسوم

أرواح الخاطئين سوء العذاب، وقد احتفظت تلك الأرواح بمظاهر أشكالها الجسدية حتى أن قطعا من النسيج كانت لا تزال عالقة بها، وأدهشه أنه كان يبدو على هذه الأرواح علامات الطمأنينة في هذا العذاب الذي يكابدونه، ومنها روح طويلة القامة، بيضاء مغمضة العينين، على جبينها عصابة وبيدها صولجان، غنت، فملأ صوتها الوادي الجدب بألحان موزونة، وشدت بذكر الآلهة والأبطال، وكانت العفاريت الصغيرة الخضراء تحرق شفتيها ونحرها بحديد محمى، وظل طيف هوميروس يغني! وعلى مقربة منه، الشيخ انا جزاجور، وكان أصلع أشيب. يرسم بالفرجار أشكالاً في التراب، وهناك شيطان يصب الزيت الغالي في أذنه وهو جاد في عمله!..

ورأى الراهب فيما رأى، طائفة من الناس على جانب وادي السعير، يقرؤون ويتحدثون في اطمئنان وهدوء، وهم يتنزهون كما يفعل الأساتذة والطلبة في ظل أشجار الأكاديمي!..

وهناك على حدة، وجد الشيخ تيموكليس قد اتخذ مكاناً قصياً، يهز رأسه هزة الجحود والإنكار، وبجانبه أحد زبانية الهاوية يحرك شعلة أمام عينيه، وتيموكليس لا ينظر إليه!

عقدت الدهشة لسان بافنوس فالتفت إلى الوحش وإذا به قد اختفى، ورأى مكانه امرأة مقنعة قالت له:

_ انظر واعتبر بهؤلاء المشركين فإنهم خالدون في جهنم، فرائس الأوهام التي أغوتهم وأضلتهم في الحياة الدنيا، لأن الموت لم يكشف الغشاوة عن بصائرهم ليروا، فما الموت بكاف لرفع الحجاب عن الحقيقة، والذين كانوا في الحياة جاهلين سيبقون في الجهل خالدين، وما أولئك الشياطين الذين يشتدون في تعذيب تلك النفوس سوى صور محسوسة

يتجلى فيها العدل الرباني. لهذا ترى تلك النفوس عاجزة عن رؤيته والشعور به لأنها بعيدة عن كل الحق فلا تدري قضاء الله عليها وتعمى عن الصواب.

فقال كاهن انصيبا:

ـ إن الله على كل شيء قدير!!

فأجابت المرأة المقنعة:

ـ إنه جل شأنه لا يفعل شيئاً عبثاً. فعقابهم يقتضي إنارة بصائرهم فإذا ملكوا ناصية الحق أصبحوا كالمجانين.

عاد بافنوس يطل ثانية على الهاوية، وقد طار لبه روعاً وفزعاً، فرأى طيف نسياس تحت الريحان المحترق يبتسم وجبينه متوج بالزهر وبجانبه "أسبازيا"[٧] تختال بدلال ورشاقة في ثوبها الصوفي، يلوح عليهما أنهما يتكلمان معاً في الحب والفلسفة، وعلى محياهما سمات الملاحة والنبل. وكان سيل النار يتساقط عليهما كأنه برد وسلام، وكانت أقدامهما تطأ الأرض المضطرمة وكأنها العشب الندي. فاهتاج بافنوس لهذا المنظر هياجاً شديداً وصاح:

ـ عدلك يا رب، عدلك! أنزل مقتك وغضبك! هذا نسياس، دعه يبكي ويتوجع! اجعل أسنانه تصطك. إنه جنى على تاييس!

واستيقظ بافنوس بين ذراعي بحار قوي كهرقل كان يحمله ليضعه على الرمل وهو يقول له:

ـ هدوءاً وسلاماً أيها الصاحب! بحق "برونيه" إله البحر، إنك تضطرب في نومك! ولو لم أكن قد أمسكت بك لسقطت في "الأينوستوس". فلا تشك في أنني أنقذت حياتك. كما لا أشك في أن أمي تبيع الفسيخ!!

فأجابه بافنوس بقوله:

_ الحمد لله!..

ثم نهض وسار يفكر في الحلم الذي رآه ويقول في نفسه:

_ إن هذا الحلم شر ظاهر، إنه يسيء إلى العزة الإلهية بتمثيل الجحيم كأن ليس له ظل من الحقيقة، حقاً إن هذه أضغاث أحلام من عمل الشيطان!..

وبينما كان يعاتب الله على تخليه عنه وتركه لسلطان الشيطان، كانت تدفعه جماهير من الناس تسير مسرعة في طريق واحد. ولم يكن معتاداً السير في المدن فإنه تعثر في طيات ثوبه وسقط غير مرة.

وأراد معرفة مقصد أولئك الناس فسأل أحدهم عن سر هذه العجلة فأجابه:

_ ألا تعرف أيها الغريب أن الألعاب ستبدأ، وأن تاييس ستمثل؟ هؤلاء كلهم ذاهبون إلى الملعب وأنا ذاهب إليه مثلهم، فهل تروق لك صحبتي.؟..

ففطن بافنوس إلى أن رؤية تاييس في ألعابها توافق خطته، وتبع الرجل الغريب.

وكان الملعب أمامهما مزداناً إيوانه بصور الوجوه المستعارة الزاهية وعلى صورة تماثيل لا تحصى. فتبعا الجهور ودخلا دهليزاً ضيقاً في نهايته مدرج تسطع فيه الأنوار. فجلسا في أحد الصفوف. وكان المسرح بادياً في أجمل زينة وأبدع مثال ولا يزال خالياً. ولم يك ثمة ستار يحجب المشهد، وكان على المسرح هضبة كالتي كان يقيمها الأقدمون لأرواح أبطالهم. وكانت هذه الهضبة في وسط معسكر. وقد وضعت أمام

الخيام حزم الرماح، وعلقت التروس الذهبية على الأعمدة بين أكاليل من الغار وتيجان من أوراق شجر البلوط، يخيم عليها جميعاً السكون. لكن دوياً كأزيز النحل دوى من نصف الدائرة حيث جلس المشاهدون، وقد تحولت وجوههم المحمرة، من انعكاس الثياب القرمزية عليها، نحو ذلك المكان الرحب الصامت بهضبته وخيامه. وكانت النساء يضحكن وهن يأكلن الليمون، وكان المترددون على الملعب يتلاقون فيتعارفون بابتهاج وابتسام.

صلى بافنوس في نفسه، وأمسك عن لغو الكلام، لكن رفيقه أخذ ينتقد الملعب، ويشكو من تأخر حاله، فقال:

_ قديماً كان الممثلون البارعون يلقون من تحت الوجوه المستعارة أشعار يوربيدس ومناندر، أما الدراما فلا تلقى الآن وإنما يقلدونها بإشارات كأنهم صم وبكم، ولم تبق لنا من المشاهد السامية التي وضعت إكراماً لباخوس في أثينا إلا ما يستطيع أن يفهمه الرجل الساذج، لأنه ليس سوى مظهر وإشارة، أما برفع المأساة الذين كان موضع الفم فيه مجهزاً بألسنة، من معدن تزيد في جهارة الصوت، والمطولات التي كان يلبسها الممثلون فتبلغهم طول الآلهة، وجلال المأساة والقصائد التي كانوا يتغنون بها.. هذه كلها قد أمحت، وحل الممثلون الصامتون، والراقصات السافرات محل بولوس وروسكيوس، ترى ماذا كان الأثينيون معاصرو بركليس يقولون لو أنهم رأوا امرأة تبدو للعيان؟.. إن سفور المرأة عيب، ولا ريب في أن رضانا به تقهقر وانحطاط، حقاً، إن المرأة هي عدو الرجل الطبيعي وسوءة الوجود.

فأجاب بافنوس:

ـ أصبت!.. فإن المرأة أشد أعدائنا، لأنها تملك قياد اللذات، وهذا سر قوتها المخيفة.

فصاح دوريون:

ـ وحق الآلهة إن المرأة لا تمنح الرجل لذة، بل تجلب الحزن والنصب، والهموم الساحقة!.. الحب مصدر آلامنا المحرقة! اسمعني أيها الأجنبي:

ذهبت في صباي إلى تيريزنا بأرجوليد، ورأيت هناك ريحانة كبيرة الحجم مثقبة الأوراق، ويقول سكان تيريزيا عنها: أنه لما هامت الملكة فيدروس بحب هيبوليتس، قضت سحابة يومها جاثية في ضنى وكلال تحت هذه الشجرة. وفي أثناء ضجرها وأعيائها أخذت دبوسها الذهبي الذي يمسك شعرها الأشقر ووخزت به أوراق الشجرة ذات الشذى العطري. وبعد أن صادت الرجل البريء الذين نصبت له شرك هواها، ماتت فيدروس شر ميتة كما تعلم، فقد أغلقت باب مخدعها وشنقت نفسها بمنطقتها الذهبية معلقة في مسمار من العاج. وأرادت الآلهة أن تبقي الريحانة شاهدة على هذا الشقاء، تحمل فوق أوراقها الغضة المتجددة وخزات الدبوس إلى نهاية الدهور. وقد قطفت إحدى هذه الأوراق ووضعتها فوق مضجعي زجراً للنفس عن التطوح في مهامة الحب، مستعيناً بحكمة أبيقور أستاذي العظيم الذي تعاليمه إن الشهوة مخوفة. وصفوة الكلام أن الحب داء محتوم لا خلاص منه غالباً.

فسأله بافنوس:

ـ فيم مسراتك إذن يا دوريون؟

فأجاب دوريون باكتئاب:

ـ لي لذة واحدة، هي التفكير. وليس لدي معدة ضعيفة مثلي أن يبحث عن سواها.

فانتهز بافنوس هذه الفرصة، وبدأ يعرف الأبيقوري بالمسرات الروحية الناشئة عن مناجاة الله والتأمل في ذاته العلية. فقال:

ـ استمع للحق يا دوريون وتلقى النور...!

فما لبث أن رأى الرؤوس والأذرع تتجه إليه من كل صوب تأمره بالسكوت. وخيم على الملعب سكون عميق أعقبته نغمات الموسيقى الحماسية.

بدأت الألعاب، وشوهد الجنود يغادرون الخيام ويستعدون للرحيل وعندئذ حدث أمر عجيب رهيب، إذ غطت سحابة قمة الهضبة ثم انقشعت وظهر طيف "أشيل" في درع من ذهب ومد ذراعه نحو المحاربين كأنه يقول لهم: "ما هذا يا أبناء دانوس، أتعودون إلى الأرض التي لن أراها ثانية، وتغادرون قبري بغير أن تقدموا إليه الذبائح والقرابين؟".

فاجتمع فوراً قواد الإغريق حول سفح الهضبة، وبينهم أكناس ابن تزيس، ونستور الشيخ، وأجا ممنون يحمل الصولجان وعلى جبينه عصابة، وجعلوا يتفرسون فيما حدث. وكان بيروس بن أشيل الصغير ساقطاً على الأرض، واتضح من حركات عوليس، المعروف بقلنسوته التي يظهر من تحتها شعره المجعد، أنه راض بما يطلبه طيف البطل، وكان يحاور أجا ممنون، واستطاع المتفرجون أن يفهموا أقوالهما من إشاراتهما، وحسبوا ملك أتيكا يقول:

ـ إن أشيل يستحق منا كل إعظام وتكريم، وهو الرجل الذي مات أشرف ميتة في سبيل اليونان، وهو يطلب العذراء بوليكسنا ابنة بريام ليضحّي بها على قبره. فيا أيها اليونانيون! ادخلوا السرور على طيف البطل واجعلوا ابن بيليه يفرح في مقره الأبدي.

لكن ملك الملوك أجاب:

_ لنبقين على عذارى طروادة اللائي أنقذناهن من المذابح، فكفى ما نزل من الأحن والمصائب بالجنس البريامي الجليل.

قال ذلك لأنه كان يهوى أخت بوليكسنا ويقاسمها مضجعها، فعيّره عوليس الحكيم أنه يفضل فراش كساندرا على رمح أشيل.

وأخيراً، وافق اليونانيون على اقتراح عوليس بأن قرعوا أسلحتهم بعضها ببعض، وتقررت تضحية بوليكسنا، فاطمأنت روح أشيل واختفى طيفه مغتبطاً.

وكانت الموسيقى تارة تعصف وتثور، وتارة تئن وتنوح، وهي تماشي إحساس الجمهور وعواطفه، فصفق الحضور طرباً وإعجاباً إلا بافنوس، الذي يعزو كل شيء إلى الله الحق، فإنه قال:

_ من هذه القصة نرى كيف كانت قسوة الذين عبدوا الآلهة الباطلة!..

فأجابه الأبيقوري:

_ إن الأديان كلها تلد الجرائم! ولحسن الحظ، أوتي إغريقي الحكمة، فخلص الناس من مخاوف المجهول التي لا أساس لها..

وهنا غادرت هيكوبا الخيمة التي كانت فيها أسيرة وهي شعثاء الشعر، ممزقة الثوب، فارتفعت تأوهات عالية من قلوب الحاضرين حين شاهدوا صورة شقائها مجسمة، وكانت هيكوبا قد أنذرت برؤيا صادقة، فبكت واستبكت لنفسها ولابنتها، فدنا منها عوليس وسألها أن تسلم بوليكسنا، فشدت شعرها بيديها، وخدشت خديها بأظافرها، وقبلت يدي ذلك الرجل الغليظ القلب الذي خاطبها بقوله:

ـ تعقلي يا هيكوبا واخضعي لحكم الضرورة، فإن في منازلنا أيضاً أمهات عجائز يبكين أطفالهن الذين ناموا تحت أشجار صنوبر إيدا نوماً أبدياً.

أما كسندرا التي كانت يوماً ملكة آسيا الغنية، وأصبحت الآن جارية، فإنها حثت التراب على رأسها.

ثم رفع ستار الخيمة، وظهرت العذراء بوليكسنا، فسرت في المشاهدين جميعاً هزة إذ عرفوا أنها تاييس، وأبصر بافنوس ثانية المرأة التي جد في طلبها.

وظهرت تاييس بعد أن رفعت بيدها البيضاء ستار الخيمة، ثم لبثت واقفة بلا حراك كتمثال بديع، وألقت من عينيها البنفسجيتين نظرات الدلال والخيلاء، ففتن جمالها الباهر كل قلب، وأحس كل من شاهدها برجفة أثارت فيه عوالم الشفقة والحنان.

وارتفعت من الحاضرين أصوات الاستحسان، حتى أن بافنوس عقد يديه فوق صدره، وشد على فؤاده مفتوناً، وتنهد متأوهاً، وقال:

ـ ربي إن هذا سلطان شديد، لواحدة من خلقك، على عبادك!

وكان دوريون أقل تأثراً منه. فقال:

ـ حقاً إن الذرات التي تألفت منها هذه المرأة كونت تركيباً بديعاً يسر النظر، وليس ذلك إلا إحدى دعابات الطبيعة وهي تلهو وتلعب، فالذرات لا تدرك ما تكونه، وسوف ينحل بعضها عن بعض وتفترق كما اتحدت، أي بغير شعور بالاتحاد ولا بالتفرق، وأين الذرات التي تكونت منها لاعيس أو كليوباترا؟.. لست أنكر أن النساء في بعض الأحيان جميلات، لكنهن جعلن عرضة للقبح والثقل والقذارة!!

هذه مسائل تشغل عقول المفكرين، في حين أن العوام لا يعنون بها ولا يلتفتون إليها، النساء يضرمن الحب فينا ويوحينه إلينا، ولكن الهيام بهن مخالف للعقل والحكمة.

كذلك فكر الفيلسوف، وكذلك فكر الزاهد في تاييس، واتبع كل منهما سبيل خواطره، فلم يلحظا اتجاه هيكوبا إلى ابنتها وقولها بإشاراتها:

_ حاولي أن تؤثري في قلب عوليس القاسي، كلميه بدموعك وجمالك وشبابك؟

فأرخت تاييس، أي بوليكسنا، باب الخيمة، وخطت خطوة فاستولت على كل القلوب، ولما تقدمت نحو عوليس بخطا ثابتة سريعة، بعثت حركاتها المتوازنة، المرتبطة بأنغام الناي الشجية، في أذهان الحضور كلهم أحلاماً لذيذة، فأحسوا كأنها هي المحور الإلهي الذي تدور حوله أنظمة الكون جميعاً! فلم يروا أحداً سواها، وكسفتَ أنوار جمالها كل ما عداها، ولم يحظ الممثلون الآخِرون بأدنى التفات، ثم استمر التمثيل.

أدار "ابن ليرت" الحصيف رأسه، وأخفى يده تحت معطفه، ليتحاشى نظرات الفتاة المتضرعة وقبلاتها، فأشارت إليه العذراء ألا يخافها ولا يخشاها، وقالت بلسان نظراتها الهادئة:

_ إني أمتك يا عوليس!.. سأتبعك خاضعة للقضاء، لأني راغبة في الموت، أنا ابنة بريام وأخت هيكتور التي كانت يوماً جديرة بالملوك فلن أرضى سيداً أجنبياً _إني بملء الرضا أنبذ الحياة!..

وكانت هيكوبا جاثية على التراب، فنهضت فجأة وعانقت ابنتها عناق اليأس والقنوط، فأبعدت بوليكسنا، بلطف لا يقاوم، ذراعي أمها عنها، وكأنها تقول:

_ لا تعرضي نفسك يا أماه لعدوان السيد، لا تنتظري منه شفقة ولا رحمة، أيتها الأم المحبوبة، هات يدك ذات الغضون وقربي خديك الضامرين إلى شفتي!

زاد الحزن وجه تاييس حسناً وإشراقاً، وشعر الجمهور بامتنان نحوها لتمثيلها أمامه أهواء الحياة وأشكالها في رقة فائقة، وسامح بافنوس زهوها الحالي إكراماً لاتضاعها المقبل، وأثنى على نفسه سلفاً من أجل القديسة التي سيضمها عما قريب إلى شعب السماء!

***

وقارب المشهد الختام، فسقطت هيكوبا كالميتة، وتقدمت بوليكسنا، يقودها عوليس، إلى القبر المحوط بصفوة رجال الحرب وصعدت مزفوفة بتراتيل الحزن المؤثرة، إلى قمة الهضبة حيث قدم ابن أشيل الخمر في كأس ذهبية إلى طيف البطل، ولما مد المقربون أذرعهم ليمسكوا بها أشارت إليهم برغبتها في الموت طليقة غير مقيدة، كما يليق بسليلة الملوك مثلها، ثم مزقت قميصها وكشفت عن موضع قلبها، فغيّب فيه بروس حسامه وقد حول رأسه، ففاض الدم، بحيلة فنية باهرة، متدفقاً من صدر العذراء الناصع، وسقطت بحياء وخفر منحنية وقد نكس رأسها، وغارت عيناها من تأثير الموت وهوله.

كفّن المحاربون الضحية وغطوها بالزنبق وشقائق النعمان في برهة ملأ الجو فيها بصيحات الفزع والأنين والتأوهات، فنهض بافنوس واعتلى مقعده وتنبأ بصوت جهوري كالرعد، هذه النبوءة:

_أيها الذين كفروا وعبدوا الشياطين!.. أيها الأريوسيون، وأنتم أشد طغياناً من الوثنيين! تعلموا! أن ما ترون الآن إن هو إلا مثال ورمز،

هي خرافة تشتمل مغزى دينياً سامياً، فإن المرأة التي مثلت أمامكم التضحية سوف تقبل الموت باغتباط في سبيل الإله المبعوث[8].

ولكن الجموع كانت قد تسابقت إلى الخروج كالموج الزاخر، واستطاع كاهن أنصينا أن يتخلص من دوريون المذهول، فانطلق وهو لا يزال يردد نبوءته.

* * *

وبعد ساعة من الزمن طرق باب تاييس.

وكانت الممثلة تسكن بيتاً محاطاً بجنات وارفة الظلال فيها صخور صناعية ينساب في وسطها غدير مزدان بأشجار الحور، في حي راكوتيس بقرب قبر الاسكندر.

ففتحت له الباب جارية سوداء شمطاء مثقلة بالحلي، وسألته عما يريد، فأجابها:

ـ أروم رؤية تاييس، والله يشهد أني ما أتيت إلى هنا إلا لرؤيتها.

وأبصرت الجارية أنه يلبس ثوباً فاخراً، ويتكلم بأبهة السيادة، فسمحت له بالدخول، وقالت:

ـ تجد تاييس في كهف العذارى..

الهوامش:

١ ـ يطلق المسيحيون هذا الوصف على خطيئة آدم وحواء إذ عصيا ربهما بأكلهما الثمرة المحرمة فطردا بسببها من الجنة وتعرضا هما وسلالتهما لعذاب الدنيا والآخرة . ويعتقدون أن السيد المسيح قد نزل ليمحو أثر هذه الخطيئة ويخلص البشر ، ويفتح لهم من جديد أبواب الجنة . "المترجم" .

٢ ـ قامت على أطلال مدينة أنصينا بلدة "الشيخ عبادة" المعروفة بالصعيد .

٣ ـ جمع جرو وهو الصغير من الحيوانات .

٤ ـ هو السيد المسيح عليه السلام .

٥ ـ اللعين ما ينصب في الزرع بهيئة رجل لطرد الطيور والوحوش .

٦ ـ من الإنجيل المقدس (يوحنا الإصحاح الأول والعدد الأول) .

٧ ـ زوجة بركليس المشهورة بالحسن والمعرفة . وكان يتردد على بيتها الفلاسفة ومشاهير الكتاب ومن بينهم سقراط .

٨ ـ يريد به السيد المسيح .

البردي

ولدت تاييس من أبوين فقيرين، وثنيين، وفي أيام حداثتها كان أبوها يدير حانة على مقربة من باب القمر في الاسكندرية يتردد إليها البحارة، فرسخ في ذهنها تذكار أمور كثيرة عن الحانة وما يتعلق بها، كانت تذكر أباها وهو متربع في زاوية البهو، طويلاً، مهيباً، هادئاً، كأنه أحد أولئك الفراعنة الذين كان العمي المتسولون يمجدونهم في أغانيهم المحزنة وهم جالسون في مفارق الطرق، وتذكر أيضاً أمها النحيلة المكتئبة تذرع البيت وتطوف به كقطة جائعة، يملؤه صوتها المنكر رعباً، وعيناها البراقتان شرراً، وقد شاع عنها في الضاحية أنها ساحرة تتحول في الليل إلى بومة لتلاقي عشاقها!.. على أن هذه الإشاعة زور وبهتان!.. فقد تحققت تاييس من ملاحظتها الدائمة لأمها أنها لم تشتغل قط بفنون السحر، ولكن لشدة تفانيها في الشح والجشع كانت تقضي سواد ليلها تحصي دخل يومها.

فأبوها الفاتر الهمة، وأمها البخيلة، كلاهما ألقيا حبلها على غاربها وتركاها كدجاجة في حظيرة الطيور البيتية! فمهرت مهارة لا تجاري في سلب دراهم البحارة السكارى، تتناولها من أحزمتهم وهي تباسطهم الأغاني الصبيانية، والكلمات البذيئة التي كانت تجهل

معناها، وكانت تنتقل من ركبة إلى ركبة في القاعة المتشبعة برائحة الخمور والقرب الراتينجية، ثم تعود ويداها الصغيرتان قابضتان على الدريهمات، ووجهها مندى برشاش الجعة المتطايرة، مخدش من اللحى الكثة، وتجري لشراء أقراص الشهد من امرأة عجوز جالسة في كنة تحت باب القمر.

وهذه المشاهد كانت تتكرر كل يوم، فيذكر البحارة ما لاقوه من الأخطار في أثناء اشتداد العاصفة، ثم يلعبون النرد والكعاب، ويطلبون، وهم يجدفون، أحسن جعة كلكيلية.

وكانت الطفلة تاييس تستيقظ كل ليلة على شغب السكارى وعراكهم، وعلى ما يتساقط فوق الموائد من قذائف المحار وسط الصخب والضجيج المتعالي، وترى بعض الأحيان، على ضوء المصابيح الكثيرة الدخان، المدي تلمع والدم يسيل...

ولم تعرف الطيبة البشرية في ريق عمرها إلا في شخص "أحمس" الذي كانت تقاسمه المذلة، وأحمس هذا عبد البيت، وهو نوبي أشد سواداً من القدور التي عني بفركها وتنظيفها!.. لكنه كان طيباً كالليل الذي يقضي في نوم عميق لا يتخلله سهاد!.. وطالما وضع تاييس على ركبتيه يقص عليها قصصاً عن مغاور مملوءة كنوزاً وقد بنيت للملوك أشحاء أعدموا الذين بنوها لهم!.. وكان في تلك القصص أيضاً لصوص حذاق يتزوجون من بنات الملوك، وسراري يبنين أهراماً!..

فأحبت تاييس الصغيرة أحمس حب الطفلة للأم والأب والمرضع والكلب! تعلقت بالعبد وكانت تتبعه إلى قبو دنان الخمر وحظيرة الدجاج بين الفراخ الضامرة المنتفشة التي ترفرف طائرة أمام مدية الطاهي الزنجي

أسرع من فراخ النسور! وفي كل ليلة تقريباً، كان يصنع لتاييس الطواحين والسفن بحجم راحة اليد، وفيها كل معداتها.

وكانت إحدى أذنيه مصلومة من سوء معاملة سادته له، وقد غطت الندوب جسده، ولكن كان على وجهه مسحة الطمأنينة والانبساط، ولم يخطر لأحد أن يسأله من أين استمد عزاء النفس وراحة الضمير، فقد كان ساذجاً كالطفل، وكان وهو يؤدي عمله اليومي الشاق ينشد بصوت أجش أناشيد تبعث في نفس الفتاة الرجفة والأحلام..

كان يترنم مسروراً بصوت جهوري يقول:

_ خبرينا يا مريم، ما رأيت حيث كنت؟..

_ رأيت الكفن ونسيج الكتان، والملائكة جالسين عند القبر، وشهدت مجد المبعوث...

فسألته تاييس مرة:

_ لماذا تتغنى يا أبت بقولك: "الملائكة جالسون عند القبر؟"

فأجابها:

_ أيتها الصغيرة، يا نور عيني! إني أتغنى بذكر الملائكة، لأن سيدنا المسيح قد صعد إلى السماء.

كان أحمس مسيحياً، معمداً، وفي اجتماعات المؤمنين التي يحضرها سراً في الوقت المعين لنومه، كان معروفاً باسم تيودور.

في ذلك العهد كانت الكنيسة تقاسي أكبر البلاء وأشد الاضطهاد، فبأمر الامبراطور هدمت الكنائس، وأحرقت الكتب المقدسة، وصهرت الأوعية الطاهرة والمسارج، وجرد المسيحيون مما ملكت ايمانهم، وما كانوا يتوقعون سوى الموت، وساد الرعب طوائف الاسكندرية، وبلاد العرب

وبين النهرين وغيرها من بلدان الامبراطورية الرومانية، وسلطت السياط ومطايا التعذيب والمخالب الحديدية والوحوش الضارية على الأساقفة والعذارى فمزقتهم شر ممزق، فانقض أنطوان، زعيم المؤمنين الذي كان مشهوراً في مصر بزهده وتقواه، انقضاض النسر على مدينة الاسكندرية، وخف من كنيسة إلى كنيسة يشدد عزائم المؤمنين، ويبث في قلوبهم روح الشجاعة والقوة والإيمان والصبر على المكاره، وكان اضطهاد العبيد على الخصوص بالغاً أشده، فارتد كثيرون منهم لما أصابهم من الجزع، وهرب آخرون إلى الصحراء بأمل أن يعيشوا فيها نساكاً زاهدين، أو لصوصاً ناهبين!

أما أحمس فظل مع هذا كله يغشى كعادته المجتمعات ويختلف إليها، فزار المسجونين، ودفن الشهداء، واعترف وجاهر مبتهجاً بدين المسيح، ولما شاهد أنطوان العظيم، قبل رجوعه إلى الصحراء، هذه الحمية الصادقة، احتضن العبد الأسود ومنحه قبلة السلام...

* * *

ولما بلغت تاييس السابعة، بدأ أحمس يحدثها عن الله، قال: "إن الله سبحانه وتعالى قد عاش في السماء، كفرعون، في خيام حريمه، وتحت أشجار جناته، وهو أزلي منذ الأزل، لا بداية له، وليس له من ولد سوى الأمير يسوع الذي يحبه بكل قلبه، والذي يفوق بجماله العذارى والملائكة جميعاً".

وقال الله للأمير يسوع:

"اترك حريمي وقصري ونخيلي وأنهاري وانزل إلى الأرض لخير البشر، ستكون فيها كطفل صغير، وتعيش فقيراً بين الفقراء، سيكون

الألم خبزك اليومي، وستذرف دموعاً غزيرة تجري أنهاراً يستحم فيها العبيد المرهقون مبتهجين.. اذهب يا بني!.. فأطاع الأمير يسوع وهبط إلى الأرض بمكان يسمى بيت لحم من أرض الموعد وسار في الرياض المنمقة بشقائق النعمان قائلاً لصحبه:

ـ طوبى لأولئك الجياع لأني سأجلسهم على مائدة أبي!.. طوبى لأولئك العطشى لأنه سيشربون من عيون السموات!.. طوبى لأولئك الذين يبكون لأني سأمسح دموعهم بنقب أبدع من نقب القيان!.."

لهذا أحبه الفقراء وآمنوا به، لكن الأغنياء مقتوه خشية أن يفضل الفقراء عليهم.

"وفي ذلك العهد كانت كليوباترا وقيصر قوة في الأرض لا تتحدى، وكلاهما كرها يسوع وأمرا الحكام والكهنة أن يقتلوه، فنصب أمراء سورية، إطاعة للملكة مصر، صليباً فوق جبل عال وصلبوا المسيح عليه، بيد أن النساء غسلن جثته ودفنها. ثم قام الأمير يسوع من بين الأموات، وخرج من قبره، وصعد إلى الله أبيه".

ومنذ ذلك العهد يصعد إلى السماء كل الذين يستشهدون في سبيله.

فيفتح الرب سبحانه ذراعيه ويقول لهم:

ـ على الرحب والسعة، لأنكم تحبون ولدي الأمير! اغتسلوا ثم كلوا واشبعوا!.

"فيستحمون على أنغام الموسيقى الشجية، ويرون في أثناء الطعام رقص القيان، ويصغون لحكايات ما أن لها من ختام! وهم لدى الله الرؤوف أعز عليه من نور عينيه، لأنهم ضيوفه، وسيكون من نصيبهم طنافس قصوره ورمان جناته!".

ضرب أحمس في أقواله على مثل هذه الأوتار الحساسة، وهكذا علم تاييس الحق واستهواها، فقالت معجبة:

_ أود لو آكل من رمان الله تعالى !!

فأجابها أحمس:

"إن الذين عمدوا في يسوع يذوقون وحدهم فاكهة السماء فطلبت تاييس أن تتعمد، ولما رأى منها إيمانها بيسوع قر رأيه على أن يمعن في تهذيبها، حتى إذا عمدت أمكن أن تنضم إلى الكنيسة، واشتد حبه لها كابنته الروحية".

وكانت تاييس منبوذة من والديها الظالمين، فلم يكن لها فراش تحت السقف الأبوي، فنامت في زاوية من الإسطبل بين الأنعام وهناك وافاها أحمس سراً تحت جنح الدجى، واقترب بخفة من القش الذي افترشته، وجلس على كعبيه، مزدوج الساقين واختفى وجهه وجسده المتشح بالسواد، في الظلمات، ولمعت عيناه الكبيرتان البيضاوان وانبعث منهما نور كشعاع الفجر المنبعث من شقوق الباب.

ثم تكلم بصوت أجش مؤثر، فيه نغمة الموسيقى المحزنة التي تسمع عند المساء في الطرقات...

وفي بعض الأحيان كان نهيق الحمار أو خوار ثور يصحب صوت أحمس وهو يرنم آيات الإنجيل، فيتألف من امتزاجها نغم موسيقي كأنه صادر عن جوقة ملحنين للأرواح غير المنظورة!!

تدفقت كلماته بهدوء في جنح الظلام، ممزوجة بالحماسة والرحمة والأمل.. فشدت المتنصرة بيدها على يد أحمس وقد اطمأنت لهذه الأنغام التي تجري على وتيرة واحدة، وسكنت نفسها لصور مخيلتها

المبهمة، فأخذ الكرى بمقاعد أجفانها، فنامت وادعة باسمة بين إيقاع ألحان الديجور والأسرار القدسية، تحت ضوء نجم بزغ من ثقوب في سقف الإسطبل.

* * *

استغرق تعليمها الأولي حولاً كاملاً، حتى جاء الموسم الذي يحتفل فيه المسيحيون وهم فرحون بعيد الفصح، ففي ليلة من ليالي ذلك الأسبوع المجيد، كانت تاييس نائمة على حصيرتها في القبو، فشعرت بأن العبد قد حملها وعيناه تسطعان بنور غريب. ولم يكن كعادته في سرواله الممزق، بل كان يرتدي عباءة طويلة بيضاء لف بها تاييس قائلاً لها بصوت خافت:

_ تعالي يا روحي! تعالي يا عيني! تعالي يا فؤادي! تعالي ارتدي ثوب التعميد..!

ثم حملها ضاماً إياها إلى صدره، وكانت خائفة لكنها تواقة إلى الاستطلاع، فأخرجت رأسها من العباءة وطوقت عنق صديقها بذراعيها، وقد جرى بها يشق حجاب الظلمات.

سارا في دروب ضيقة واجتازا حي اليهود ومرا أولاً بمقبرة انبعث منها صياح العقاب الرهيب، ثم بمفرق طريق علقت فوق صلبانه أجساد المعذبين وقد حطت على أذرعهم الغربان الناعقة تنقرها، فخبأ تاييس رأسها في صدر العبد، ولما فتحت عينيها رأت نفسها في كهف ضيق مضاء بشعل راتينجية، منقوش الحيطان بصورة كبيرة تظهر في دخان المشاعل كأنها أحياء تتحرك.. وهي صور رجال مرتدين جلاليب طويلة يحملون السعف في وسط حملان وحمام وغصون كرم.

وعـرفت تاييس من بين هذه الأشكال يسـوع الناصـري بشـقـائق النعـمـان المزهرة عند قدمـيـه. وفي وسط القاعـة، بقرب جـرن المعـمـودية المملوء بالماء، وقف شيخ هرم مرتد حلة قسيس قرمزية مطرزة بالذهب، وعلى وجهه النحيف لحية طويلة، على رغم حلته الفاخرة، كانت تلوح عليه سيماء التواضع ودماثة الخلق، ذلكم المطران فيفانتوس الذي كان أميراً مبعداً من كنيسة برقه وأصبح الآن ينسج من شعر الماعز قماشاً صفيقاً ليقيم صلبه، وقد وقف بجانبه غلامان فقيران، وعلى مقربة منه حملت عجوز زنجية ثوباً صغيراً أبيض، فأنزل أحمس البنت إلى الأرض، وركع أمام الأسقف وقال:

ـ هذه هي يا أبي، النفس الصغيرة، ابنة روحي، أحضرتها لك حتى إذا ما راقت سيادتكم أنعمت عليها حسب وعدك بمعمودية الحياة!

فمد المطران ذراعيه وأظهر يديه المشوهتين، اللتين نزعت أظافرهما عقاباً على جهره بالإيمان في أيام المحن والاضطهاد، فأوجست تاييس خيفة وألقت نفسها في حضن أحمس، لكن الكاهن لاطفها وسكن روعها بقوله:

ـ "لا تخافي أيتها الطفلة المحبوبة، فإن لك هنا أباك الروحي الذي يدعى بين المؤمنين تيودور، ولك أم صالحة ترعاك، وهي التي خاطت لك بيديها ثوباً أبيض.

ثم التفت إلى الزنجية، وقال:

ـ إنها تدعى "نيتيدا" وهي على هذه الأرض جارية. لكن يسوع سيرفعها في السماء إلى صف عرائسه!

ثم سأل الطفلة المتنصرة:

ـ أتؤمنين يا تاييس بالله الأب القادر على كل شيء؟ وبابنه الوحيد الذي مات في سبيل خلاصنا؟ وبكل تعاليم الرسل؟

فأجاب الزنجي والزنجية، اللذان كانا قابضين على يديها بالإيجاب.

وطبقاً لأوامر الأسقف ركعت نيتيدا ونضت عن تاييس ثيابها كلها، فصارت عارية إلا من رقية في عنقها، ثم غطسها المطران ثلاث مرات في جرن المعمودية، ومسحها بالزيت ووضع حبة من الملح على شفتيها، وبعد تنشيف جسدها الذي كان معداً بعد تجارب عديدة للحياة الخالدة، ألبستها نيتيدا الثوب الأبيض نسيج يديها.

ثم منحهم الأسقف جميعاً قبلة السلام، وانتهت الحفلة فنزع حلته الكهنوتية.

ولما صاروا جميعاً خارج السرداب قال أحمس:

ـ ينبغي أن نغتبط بتقديمنا اليوم نفساً لله، فهل نذهب إلى منزل سيادتكم ونقضي بقية الليل بالحبور.

فأجاب المطران:

ـ أحسنت يا تيودور...

ثم قادهم إلى داره القريبة منهم وكانت مؤلفة من حجرة واحدة متاعها نولان، ومنضدة كبيرة، وسجادة بالية.

فصاح النوبي عند دخولهم:

ـ هات يا نيتيدا الموقد وجرة الزيت، ولنطهين أكلة هنيئة!

قال هذا وأخرج من تحت عباءته بعض السمك، وأشعل ناراً وأخذ يقليه، وجلس الأسقف والطفلة والغلامان والعبدان في دائرة فوق السجادة، وأكلوا السمك المقلي وحمدوا الله.

وتكلم فيفانتوس عما عاناه من الآلام المبرحة، وبشّر بفوز الكنيسة القريب، وكانت لغته جافة، غير أنها فائضة بالمجازات الفصيحة والنكات البديعة، وشبه حياة الاستقامة بنسيج أرجواني موشى، قال في شرح سر العماد:

ـ إن الروح القدس يرفرف فوق المياه، ولهذا يتلقى المسيحيون عماد الماء، غير أن الشياطين يسكنون أيضاً الغدران، كذلك الينابيع المخصصة للحوريات خطرة مخوفة، ومن المشاهد أن بعض المياه يسبب أمراضاً مختلفة للنفس والجسد.

وفاه في بعض كلامه بأحاجي ومعميات ملكت على البنت مشاعرها تيهاً وإعجاباً! وبعد الفراغ من الطعام قدم لضيوفه شيئاً من النبيذ، فانطلقت ألسنتهم من عقالها وأخذوا ينشدون ويسبحون، ثم نهض أحمس ونيتيدا ورقصا رقصة غريبة نوبية تعلماها في صباهما، وكان بلا ريب شائعة في القبيلة منذ قديم الزمان، وهي رقصة غرامية، يكون فيها تحريك الأذرع والجسد بأكمله، ثم الاحتيال بالتناول على الهرب، ثم اقتفاء الأثر، فأدارا عيونهما الكبيرة وأظهرا أسنانهما اللامعة وهما يبتسمان.

كذلك تلقت تاييس التعميد القدسي.

* * *

هامت تاييس بحب اللهو والمرح، وتولدت في نفسها، وهي تنمو وتكبر، رغبات مبهمة وأهواء... فكانت ترقص وتغني سحابة نهارها مع أولاد الشوارع المتشردين، وفي الليل تعود إلى بيت أبيها وهي لا تزال تغني...

ثم أخذت تفضل صحبة الصبيان والبنات على صحبة أحمس الرقيق الرزين، فلم تلحظ أن صديقها قد قلل اجتماعه بها، وكان الاضطهاد قد انقطع وأصبحت محافل المسيحيين أكثر انتظاماً، فأخذ النوبي يحضرها على الدوام، وزادت حميته اشتعالاً، وكان في بعض الأحيان يفوه بكلمات تنذر بالوعيد كقوله: "إن الأغنياء سوف يفقدون أموالهم!" وذهب مرة إلى الساحات العامة حيث اعتاد فقراء المسيحيين أن يجتمعوا، وهناك جمع اليائسين الراقدين في ظل الجدران العالية وبشرهم بتحرير الأرقاء، ودنو يوم العدالة، قال:

_ سوف يشرب الأرقاء في ملكوت السموات خمراً صافية، ويأكلون فاكهة لذيذة، على حين أن الأغنياء يكونون جاثمين عند أقدامهم كالكلاب يلتقطون فتات موائدهم!.

لم تبق هذه الأقوال في طي الكتمان، بل ذاعت في نواحي المدينة كلها، وخشي السادة أن يغري أحمس عبيدهم بالتمرد. وحقد صاحب الحانة عليه حقداً بالغاً، ولكنه كتم عنه حفيظته.

ففي ذات يوم اختفت من الحانة مملحة من الفضة مخصصة لمائدة الآلهة... فاتهم أحمس بسرقتها نكاية في سيده وفي آلهة الامبراطورية، وكان الاتهام بغير دليل على الإطلاق، وأنكر العبد التهمة بكل قواه، على أنه سيق إلى محكمة، وحكم عليه القاضي بالموت، إذ كان على زعمهم عبداً رقيقاً لا قيمة له ولا اعتبار، وقال له:

_ ستسمر في صليب يداك اللتان لم تعرف كيف تحسن استخدامهما.

فسمع أحمس الحكم بهدوء، وحيى القاضي باحترام فائق، واقتيد إلى السجن العام، وفي أثناء الأيام الثلاثة التي قضاها فيه ظل يكرز

بالإنجيل للمسجونين، وقيل أنه في وقتها تأثر المجرمون والسجان نفسه بكلماته وآمنوا بالمسيح المصلوب.

ساقوه إلى أحد تلك المفارق التي مر بها فرحاً مغتبطاً ذات ليلة منذ أقل من عامين، حاملاً تحت عباءته البيضاء تاييس الصغيرة ابنة روحه، وزهرته المحبوبة.

ولما صلب وسمرت يداه لم يتأوه ولم ينبس ببنت شفه، غير أنه تمتم قائلاً: "ظمآن!.. إني ظمآن!..".

ودام كربه ثلاثة أيام بلياليها، ولا يكاد المرء يصدق أن الجسد البشري يستطيع أن يتحمل مثل هذا العذاب الطويل، حتى ظن مراراً أنه مات، وكان الذباب قد التهم بعض جفنيه، بيد أنه ما لبث أن فتح عينيه الداميتين بغتة، وفي صبيحة اليوم الرائع غنى بصوت جهير، أرق من صوت الأطفال.

خبرينا يا مريم ماذا رأيت حيث كنت...

ثم ابتسم وقال:

_ ها هم ملائكة الله مقبلون!.. يحملون إلي خمراً وأثماراً... لله ما أندى حفيف أجنحتهم...

وأسلم الروح.

وظل وجهه وهو ميت مشرقاً بأنوار السعادة الأبدية فكان موضع إجلال الجنود الذين كانوا يحرسون الصليب، وأتى فيفانتوس مصحوباً ببعض الإخوان المسيحيين في طلب الجثة لدفنها بين بقايا الشهداء في قبر القديس يوحنا المعمدان، واحتفظت الكنيسة منذ ذلك الحين بذكر القديس "تيودور النوبي" الموقر.

وبعد ثلاث سنوات أصدر قسطنطين، فاتح ماكسانس، مرسوماً أمن فيه المسيحيين.

وكانت تاييس قد بلغت من العمر إحدى عشرة سنة حين مات صديقها معذباً، فشعرت بحزن عميق وجزع شديد، ولم تكن روحها من السمو بحيث تدرك أن العبد أحمس كان هانئاً جد الهناء بحياته وموته على السواء، وتولد في ذهنها الضيق أن في استطاعة المرء أن يكون في هذه الدنيا صالحاً ولكن ذلك يكلفه عناء التباريح والآلام، فخافت أن تكون صالحة لأن جسدها الغض الرقيق لا يحتمل آلام الصلاح!

وكان لها، قبل الأوان، عشاق من صبيان المرفأ، وكانت تتبع الرجال المسنين الذين يطوفون في المساء في ضواحي المدينة مفسدين، وتشتري بما ينفحونها به ما تشتهيه من الحلوى وأدوات الزينة...

وأساءت أمها معاملتها لأنها لم تكن تأخذ إلى البيت شيئاً مما تربحه من النقود، فكانت كثيراً ما تهرب وتجري حافية إلى أسوار المدينة لاجتناب صفعات أمها، وتختبئ مع الهوام في شقوق الأحجار، وهناك كان يخامرها حسد النساء اللاتي نراهن مارات متبرجات في أبهة وبهاء، محمولات في محفاتهن على أكتاف الأرقاء.

وفي ذات يوم نالها من الضرب فوق المعتاد، فخرجت وانطرحت عند بوابة المدينة، ثائرة النفس واجمة، وبينما هي على هذه الحال وإذا بامرأة عجوز قد وقفت أمامها ونظرت إليها ملياً وهي ساكنة ثم قالت:

ـ يا لك من زهرة حسناء أيتها الطفلة الفتانة! ما أسعد أباك الذي أوجدك وأمك التي ولدتك؟

فنظرت تاييس صامتة مطرقة وقد أحمر جفناها من كثرة البكاء، فعادت العجوز تقول:

ـ يا زنبقتي البيضاء!.. أليست أمك سعيدة الجد لأنها أرضعت معبودة صغيرة مثلك؟ أو ليس أبوك مغتبطاً من صميم فؤاده برؤيتك؟

فأجابت الطفلة كأنها تحدث نفسها:

ـ أبي زق منتفخ من الصهباء، وأمي علقة شرهة!..

فنظرت العجوز ذات اليمين وذات الشمال لتستوثق أن ليس عليها رقيب، ثم قالت متلطفة:

ـ أيتها السوسنة النضرة ذات البهاء!.. أيتها الحسناء التي تشرب النور وتنهل الضياء!.. تعالي معي، وستكون حياتك سلسلة متصلة الحلقات من الرقص والابتسامات! سأطعمك الشهد وسيحبك ابني، ابني الصميم، حبه لعينيه، وإنه لفتى لو علمت غض الأهاب في شرخ الصبا، فاتن المحيا، ليس له في ذقنه إلا لحية خفيفة، وجلده ناعم بض، وإنه لخنوص[1] من خنانيص أشارنيه!

فأجابت تاييس:

ـ خذيني، إني ذاهبة معك!

ثم نهضت، وتبعت العجوز إلى خارج المدينة.

* * *

كانت هذه المرأة، وتدعى "مروا"، تأخذ البنات والصبيان من بلد إلى بلد، وتعلمهم الرقص ثم تؤجرهم بعدها لسراة القوم، ليرقصوا لهم في الولائم والحفلات...

ولما رأت أن تاييس ستغدو عما قليل أجمل النساء، علمتها الموسيقى والغناء، مستعينة على ذلك بالسوط، وكانت تجلد ساقيها البديعتين بسيور من الجلد إذا لم تقف عند سماع نغمات القيثارة.

أما ابنها فكان ثمرة إجهاض، سقطاً لا تبدو عليه حقيقة سنه، ولا يميز الناظر إليه كنه جنسه!.. وكان ينتهر الفتاة ويصب عليها جام حقده على النساء جميعاً. ولما كان ينافس الراقصات متكلفاً رشاقتهن، فقد تعلمت منه تاييس فن التمثيل الإيمائي الصامت والتعبير عن العواطف الإنسانية بواسطة ملامح الوجه والهيئة والوضع، وامتازت بتمثيل أهواء الغرام، ولقد محضها، على كره منه، نصح أستاذ ماهر، بيد أنه كان يغار من تلميذته، فيخدش خديها ويقرص ذراعيها وينخسها بإبرة في ظهرها حين كان يتضح له أنها خلقت لإمتاع الرجال!

وبفضل هذه الدروس أتقنت، في زمن قصير، فنون الموسيقى، والتمثيل الصامت، والرقص، ولم تدهشها قط فظاظة معلميها، إذ لم تكن ترى أية غرابة في أن تهان وتساء معاملتها، بل شعرت بشيء من الاحترام نحو تلك الموسيقية العجوز التي تجرع النبيذ الإغريقي!

ولما جاءت "مروا" مدينة انطاكية، أطنبت في مدح تلميذتها، كراقصة عازفة، لوجهاء وأعيانها الموسرين الذين كانوا يقيمون المآدب.

رقصت تاييس فنالت الإعجاب، وأخذها السراة بعد انفضاض الولائم إلى أحراج نهر العاصي، فسلمت نفسها للجميع من دون أن تعرف للحب ثمناً، ولكن حدث ذات ليلة، بعد أن رقصت أمام أظرف شباب المدينة، أن اقترب منها ابن الوالي يتوثب فتوة، ويختال عزة، وقال لها بصوت كأنه مرطب بالقبل:

_ ليتني التاج المنعقد على مفرقك يا تاييس! ليتني القميص المزرور على جسمك البديع! ليتني نعل قدميك الجميلتين! إني أروم أن تطئ بقدميك قامتي، وأن يكون قميصك وتاجك من عناقي وقبلاتي، فتعالي أيتها البنية المليحة، تعالي إلى بيتي، ولننس العالم!

نظرت إليه وهو يتكلم، واستبانت محاسنه، فشعرت على الفور بالعرق يثلج جبينها، واستحال لونها كالعشب اخضراراً، ترنحت وانتشرت على عينيها غشاوة، فتوسل إليها ثانية أن تتبعه فرفضت ولم تغنه نظرات اللوعة وكلمات الحب فتيلاً، ولما أخذها بين ذراعيه ليسير بها على رغمها، دفعته بخشونه، فعاد يتوسل إليها ويتضرع وهو يذرف أمامها الدموع وبريق العبرات، فامتنعت عليه بسلطان قوة مجهولة لا تقاوم، فقال المدعوون:

ـ تباً لها من زمارة حمقاء!.. إنها تنبذ لوليوس الفتى النبيل الغني الجميل!

عاد لوليوس وقد كواه الهوى سواد ليله بناره، وفي الصباح ذهب ممتقع اللون، أحمر العينين، وعلق الزهر فوق باب الموسيقارة، وكان الهم والضجر قد اعتريا تاييس، فأعرضت عن لوليوس، على أنها كانت تتخيله دائماً، تألمت ولم تدر سر ما تشكو منه، سألت نفسها لماذا تغيرت هكذا، ومن أين دهمتها الكآبة؟ ردت كل عشاقها لأنهم أزعجوها، وعافت رؤية الضياء فلبثت سحابة نهارها مضطجعة في فراشها ورأسها غارق في الوسائد، ثم تهيأت للوليوس وسائل اقتحام بابها، وأتى عدة مرات يرجو ويلعن تلك البنت العنيدة، فلبثت في حضرته خائفة كعذراء بتول، وأصرت على قولها:

ـ لا أريد!.. لا أريد!..

وبعد خمسة عشر يوماً وهبته نفسها، إذ شغفها حباً، فذهبت إلى بيته وعاشت معه، وكانت ثمة حياة لذيذة، فكانا يقضيان النهار في خلوة يحدق كل منهما في عيني صاحبه، ويخاطب أحدهما الآخر

بكلمات لا يقولها سوى الأطفال، فإذا جاء المساء تنزها على ضفتي العاصي الخاليتين، وضلا السبيل غير مرة في الأحراج، واستيقظا أحياناً عند الفجر ليذهبا لقطف السوسن فوق منحدرات "سلبيكوس"، وشربا من كأس واحدة، وكانت إذا رفعت إلى فمها حبة عنب تناولها بأسنانه من بين شفتيها!

أتت "مروا" بيت لوليوس تطلب تاييس بصيحات عالية قائلة:

_ ابنتي! ابنتي التي أخذت مني عنوة!.. زهرتي المعطرة؟ حشاشة فؤادي، وفلذة كبدي!

فصرفها لوليوس بعد أن أجزل لها العطاء، لكنها لما عادت تلحف في طلب المزيد من قطع الذهب بعث بها الفتى إلى السجن، وحقق الحكام جرائم عديدة اتهمت باقترافها، فسيقت إلى الإعدام وطرحت طعاماً للوحوش الضارية.

***

أحبت تاييس لوليوس بكل ما فيها من هياج وسذاجة النفس، وقالت له من أعماق قلبها:

_ لم ينل أحد مني ما نلته!..

فأجابها لوليوس:

_ إنك لا تشبهين أية امرأة في الوجود...

وظل السحر ستة أشهر، ثم انحلت يوماً طلاسمه، فأحست تاييس فجأة بنفسها خالية وحيدة، ولم يبق لوليوس في نظرها لوليوس الذي أحبته. وفكرت:

_كيف تغيرت هكذا في طرفة عين، وكيف تغير لوليوس حتى أنه صار في نظري مثل سواه من الرجال، ولم يعد مثل نفسه؟..

ثم هجرته، وبفؤادها رغبة خبيثة في أن تجد لوليوس في إنسان آخر ما دامت لا تجده فيه نفسه، وخيل إليها أيضاً أن الحياة مع إنسان لم تحبه قط أيسر خطباً منها مع إنسان صارت لا تحبه، وصحبت المترفين من أبناء المسرات والفجور في تلك الولائم الدينية، حيث كانت ترقص في المعابد نخبة من العذارى العاريات، وتقطع السراري نهر العاصي سابحات، واشتركت في جميع الملاهي التي أقامتها المدينة البديعة الفاسقة، وأكثرت من التردد على دور التمثيل حيث كان الممثلون الإيمائيون يأتون من كل حدب وصوب لتمثيل أدوارهم بين تهليل الجماهير الظمأى إلى اللهو واللعب.

عنيت بدرس حركات الممثلين والراقصين، ولاسيما الممثلات اللاتي كن يمثلن في الروايات الفاجعة أدوار الربات عاشقات الشبان، أو المخلوقات الهائمات بحب الأرباب، وبعد أن علمت السر الذي به خلبن لب الجمهور، توقعت أن تبزهن لأنها تفوقهن حسناً ودلالاً.

فمضت إلى رئيس الممثلين وسألته أن يلحقها بفرقته، وبفضل جمالها، والدروس التي تلقتها من "مروا" العجوز قبلت وظهرت على المسرح في دور "ديرسيه"، فلاقت نجاحاً ضئيلاً لأنها كانت مفتقرة إلى المران، ولأن جمهور المشاهدين لم يَشوق إلى مرآها بالأطناب في محاسنها والثناء عليها قبل ظهورها على المسرح، ولكنها لم تمض بضعة شهور حتى انفجر بأس جمالها على مسرح التمثيل بقوة اهتزت لها المدينة من أقصاها إلى أقصاها، فهرع أهل إنطاكية إلى الملعب حتى اكتظ بهم، واضطرت قوة الرأي العام زعماء الامبراطورية وقضائها ورؤساء البلد إلى الظهور هناك، وحرم الحمالون والكناسون وعمال الميناء أنفسهم النوم والخبز ليدفعا أجر مقاعدهم، ومدحها الشعراء بقصائدهم،

وخطب في تجريحها الفلاسفة الملتحون في الحمامات والمدارس، وأشاح عنها الرهبان المسيحيون في أثناء مرورها في محفتها!

توجت عتبة بيتها بالزهر ونضجت بالدم، تلقت من عشاقها الذهب بغير حساب، وزناً وكيلاً، لا عداً، وتدفقت الكنوز التي ادخرها الكهول الأشحاء عند موطئ قدميها كالأنهار، لذلك طابت نفساً وقرت عيناً، ابتهجت لتكريم الجمهور وعطف الآلهة، وهامت بحب نفسها، لأن الجميع هاموا بحبها!

وبعد أن تمتعت عدة سنوات بحب الإنطاكيين وإعجابهم،، اشتاقت للعودة إلى الاسكندرية لتظهر عزتها للمدينة التي ضربت في أرجائها وهي طفلة تجر ذيل الشقاء والحرمان وقد هزلها الجوع والمسبغة، فكانت هزيلة كالجرادة في وسط طريق مقفر... فاستقبلتها المدينة الذهبية بالفرح والترحيب، وغمرتها بالهبات والعطايا، وكان ظهورها في الألعاب نصراً مبيناً، وسعى إليها جمهور لا يحصى من المعجبين والعاشقين، فتلقتهم بفتور وقلة مبالاة لأنها يئست من العثور على من يشغل مكاناً شغله لوليوس من قلبها.

***

تلقت من بين الجموع الغفيرة الفيلسوف "نسياس" الذي اشتهاها على مجاهرته بالتجرد من الشهوات، وكان على ثراه ذكي الفؤاد دمث الأخلاق، غير أنه لم يفتنها بحصافة عقله ولا برقة حاشيته، فلم تحبه، بل أغضبتها أحياناً تهكماته الرائقة، وجرحها بشكوكه الدائمة. لم يكن يؤمن بشيء، وهي قد آمنت بكل شيء، آمنت بالعناية الإلهية، وبقدرة أرواح الشر، وبالرقى والتعاويذ، وبالعدل الأزلي، وبيسوع المسيح، كما

آمنت أيضاً بأن الكلاب تنبح إذا مرت آلهة جهنم السوداء بمفارق الطرق!! وبأن المرأة تستطيع أن توحي الحب إذا صبت شراب العشق في كأس تحوي جزة شاة مخضبة بالدماء، وسقته لمن تريده!!

ظمئت إلى المجهول، ودعت كائنات لا أسماء لها، وعاشت في انتظار دائم، روعها المستقبل وأخافها فتطلعت إلى معرفته، لاذت برهبان ايزيس وبالسحرة الكلدانيين، والعرافين الذين مكروا بها وخدعوها على الدوام، ولكنهم لم يتخلوا عنها مطلقاً.

خافت الموت، ورأته في كل مكان، وكانت كما استسلمت للملذات يخيل إليها كأن إصبعاً مثلوجاً قد لمست كتفها العارية، فيمتقع لونها وتصرخ من الهلع بين الذراعين اللتين تطوقان خصرها.

قال لها نسياس:

ـ وماذا يكون لو جرى القضاء بأن ننزل أبيضي الشعر، ضامري الخدود، إلى الليل الأبدي؟ ثم ماذا يكون لو كان هذا اليوم الذي يبتسم لنا الآن في صفحة السماء المبسوطة، هو آخر أيامنا؟ ماذا يضيرنا يا عزيزتي تاييس، وماذا يكون؟ ألا فلنستمرئ طعم الحياة فسنحيا طويلاً إذا ما شغفنا كثيراً، فلا فطنة في غير الحواس...

إن الحب هو الفطنة، أما نجهله فليس لنا به شأن، وما فائدة إزعاج أنفسنا لغير طائل:

فأجابته غاضبة:

ـ إني أمقت الذين على شاكلتك لا يرجون ولا يخافون!.. إنني راغبة في المعرفة!.. راغبة في المعرفة!..

أخذت تقرأ كتب الفلاسفة لتقف على سر الحياة، فلم تفهمها، وكان

كلما تقدم بها الزمن وتباعد ما بينها وبين أيام طفولتها ازدادت تعلقاً بذكراها. فولعت بأن تسير تحت ستار الظلام، وهي متنكرة، في تلك الدروب والمنعطفات والميادين العامة حيث شبت في الشقاء والبأساء، وكم أسفت على فقد والديها، وبخاصة لأنها لم تحظ بلذة محبة لهما، وكانت عندما تلقى الرهبان المسيحيين تفكر في عمادها وتضطرب.

وفي ذات ليلة، بينما كانت تجوس خلال ضواحي المدينة كعادتها، وهي مرتدية طيلساناً، وشعرها الأشقر مخبوء تحت قلنسوة سوداء، ألفت نفسها، دون أن تعرف كيف كان ذلك، أمام كنيسة القديس يوحنا المعمدان الحقيرة، فسمعت بداخلها ترتيلاً، ورأت نوراً ساطعاً منبعثاً من شقوق الباب، ولا عجب، فقد جعل المسيحيون لعشرين عاماً خلت يحتفلون بأعياد علانية تحت حماية "فاتح ماكسانس"، وكانت تلك التسابيح تنادي الأرواح نداءً حاراً لا يرد، فدفعت الممثلة الباب بيدها ودخلت كمدعوة إلى المشاركة في الأسرار، فوجدت جمعاً حاشداً من النساء والأولاد والشيوخ، راكعين أمام قبر بجانب الجدار، ولم يكن هذا القبر سوى خابية حجرية نقشت عليها أغصان وأعناب نقشاً خشناً، ومع ذلك فقد نالها من التكريم قسط وافر، فكانت مغطاة بسعف النخل وأكاليل الورد الأحمر، وكان المعبد مناراً بمصابيح لا عدد لها، تشق أنوارها الظلام الذي يظهر فيه دخان الصموغ العربية كأنه ثنايا حلل الملائكة، وعلى الحائط رسوم كأنها رؤى الفردوس. وثم رهبان في ثياب بيض خروا سجداً عند مؤخرة الناووس، وكانت التسابيح التي شاركهم الشعب في ترتيلها تعرب عن بهجة الآلام، وكانت مزيجاً من الفرح والحزن بحيث أحست تاييس وهي مصغية بملذات الحياة وغصص الموت تجري معاً في مشاعرها المستيقظة.

ولما أتم المصلون الترتيل، نهضوا وتوجهوا للتبرك بتقبيل القبر تباعاً، أولئك كانوا قوماً بسطاء من أهل الحرف اليدوية، تقدموا ثابتي الخطا، شاخصي الأبصار، كليلي الأفواه تلوح عليهم سلامة النية، جثوا واحداً بعد واحد أمام الناووس وألصقوا، شفاههم، ورفع النساء الأطفال الصغار على أذرعهن ووضعن خدودهم بلطف على الحجر.

فدهشت تاييس واضطربت، وسألت شماساً: لم يفعلون ذلك؟ فأجابها:

_ ألا تعلمين أيتها المرأة أننا نحتفل اليوم بالذكرى المباركة للقديس "تيودور النوبي" الذي احتمل العذاب في سبيل الإيمان في عهد الامبراطور ديوقليس؟ إنه عاش طاهراً ومات شهيداً، وهذا هو السبب الذي من أجله قد حملنا الورد الأحمر ونحن في ثياب بيضاء إلى ضريحه المكرم.

فلما سمعت تاييس قوله هذا خرت جائبة وأجهشت بالبكاء. عادت إلى ذهنها ذكرى أحمس التي كادت تطمسها يد النسيان، وعلى تلك الذكرى المبهمة، العذبة، المؤلمة، أرسلت أشعة الشموع وعطور الورد، وسحب البخور، وألحان المزامير، ومظاهر الخشوع وعزة الفخر وجمال المجد.

فحدثت تاييس نفسها:

_ إنه كان ذليلاً، وها هو ذا جليل القدر، جميل الذكر! ترى كيف رفع فوق هام البشر؟ فما هو ذلك الشيء المجهول الذي فاق الثراء والسراء؟

نهضت ببطء، واتجهت إلى قبر القديس الذي شغف بعينيها البنفسجيتين، العينين اللتين تلألأت فيهما الدموع في نور الشموع،

ووقفت مطرقة في مؤخرة الجماعة، خاشعة متباطئة، ولثمت قبر العبد بشفتيها اللتين علقت بهما شهوات كثيرة.

***

ولما رجعت إلى بيتها وجدت نسياس ينتظرها، مضمخ الشعر بالطيب مفكوكاً قميصه، يقرأ رسالة في الأدب يستعين بها على مضض الانتظار، فتقدم للقائها مبسوط الذارعين قائلاً بصوت ضحوك:

_أتعرفين يا تاييس الخبيثة ماذا وجدت في أثناء انتظارك في هذا الكتاب الذي كتبه أرزن الرواقيين؟ أهي حكم سامية وسنن عالية؟ كلا! رأيت على البردى الخشن ألف تاييس صغيرة ترقص، وألف تاييس! وكانت كل واحدة منهن طول الإصبع، ومع ذلك كان ظرفهن لا يحد، وكلهن تاييس الفريدة! كان بعضهن يرفل في حلل من أرجوان وذهب، وبعضهن يسبح كسحابة بيضاء في نقب شفافة، وأخريات يوحين اللذة بسكونهن في سناء عريهن، وكانت اثنتان منهن متماسكتين بالأيدي، وهما متشابهتان شبهاً يستحيل معه تمييز الواحدة عن الأخرى، ابتسمت كلتاهما، وقالت الأولى "أنا الحب" وقالت الثانية: "أنا الموت".

قال هذا واحتضن تاييس، ولم يلحظ أنها كانت ترمق الأرض بنظرة وحشية، فاستمر يحدثها بما جال في ذهنه من الخواطر والأفكار، وواصل كلامه قائلاً:

_ أجل! لما وقع تحت ناظري هذا السطر: "يجب ألا يحول شيء بينك وبين تهذيب نفسك" قرأت: "قبلات تاييس أحر من اللهيب وأحلى من الشهد" وهذه هي _والذنب ذنبك أيتها الفتاة اللعوب _الطريقة التي أصبح بها الفيلسوف يفهم كتب الفلسفة ولا ريب أننا، ما دمنا كما

نحن، لن نجد في خواطر غيرنا إلا خواطرنا بعينها، بل إذا قرأنا كتاباً فنحن يكاد نقرؤه كما قرأت هذا الكتاب...

لم تكن مصغية إليه، لأن ذهنها كان منصرفاً إلى قبر النوبي، فلما سمعها تتنهد أخذ يقبل منابت الشعر من عنقها، وهو يقول:

ـ قري عيناً ولا تحزني يا بنيتي! لا يستطيع المرء أن يكون سعيداً في هذه الدنيا إلا إذا نسيها أو تناساها! ولدينا سر ذلك فتعالي نخدع الحياة! إنها أهل لأن يمكر بها لأنها تكيل لنا الصاع صاعين، هلمي نتبادل الحب!

فدفعته عنها وصاحت بمرارة:

ـ نتبادل الحب! إنك لم تحب قط إنساناً.. أنت! ولا أنا أحبك! كلا! لا أحبك! إنني أبغضك، إنني ألعن السعداء الأغنياء كافة واحتقرهم! إليك عني! فلا فضيلة في الدنيا ولا محبة إلا لدى المساكين، لما كنت طفلة عرفت عبداً أسود مات مصلوباً، كان طيباً، كان يفيض محبة، وقد حظى بسر الحياة، إنك لا تستأهل أن تغسل قدميه. اذهب عني! فإني لا أريد أن أراك بعد الآن...

ثم انبطحت على البساط وقضت ليلتها في أنين ونحيب، وصممت من تلك اللحظة أن تقتفي خطوات القديس تيودور وتعيش عيشة المتربة والمسكنة.

وفي اليوم التالي عادت إلى الملاهي التي كانت قد أعدتها، وإذ عرفت أن جمالها الذي كان لا يزال ساحراً لن يبقى طويلاً، سارعت إلى التمتع به بكل ما يمكن من الابتهاج والاعتزاز، وأظهرت في الملعب عناية لم تظهرها من قبل، فأحيت بتمثيلها تخيلات الحفارين والمصورين

والشعراء، وأخذ العلماء والفلاسفة من شكل الممِثلة وهيأتها وحركاتها وتخطرها النظام السماوي الذي يسير الأفلاك، فأدرجوا هذا الكمال المطلق في عداد الفضائل، وقالوا: "تاييس أيضاً مهندسة!"، وباركها الجهلاء والفقراء والأذلاء لقبولها الظهور أمامهم، وعدوه نعمة من السماء، لكنها مع هذا الإعجاب والثناء كانت حزينة شديدة الجزع من الموت، ولم يك ثمة ما يستطيع أن يدفع عنها همها وبلبالها، ولا وجدت عزاء في بيتها وجناتها التي كانت من الشهرة بحيث تضرب الأمثال بها في المدينة.

غرست في حدائقها الأشجار الغالية التي جلبتها بنفقات باهظة من الهند وبلاد الفرس، يرويها جدول متفجر وسط صف من الأعمدة المتهدمة والصخور الهائلة المشيدة بيد بناء ماهر، تنعكس في بحيرة ترتسم على مرآتها المجاورة التماثيل التي حولها، وفي وسط الحديقة يقوم "كهف العذارى" الذي يعزي اسمه إلى تماثيل ثلاث من النساء مصنوعة من الرخام الملون بمهارة وتفنن، واقفات عند مدخله، وهؤلاء النسوة كن قد نضدن ثيابهن ليغتسلن، والتفتن قلقات خشية أن يراهن أحد وعليهن علامات الحياء، وكان الضوء لا ينفذ إلى هذا الخدر إلا من خلال طبقات المياه الرائقة التي تخففه وتلونه بألوان قزحية، وعلى جانب الحيطان علقت، كما تعلق في المغاور المقدسة، التيجان وأكاليل الزهر والصور المنذورة التي ظهر فيها جمال تاييس وذاع صيته، وكانت هناك أيضاً براقع للمأساة وأخرى للمهزلة ذات ألوان زاهية، وصور تمثل مشاهد مسرحية وأشكالاً هزلية أو حيوانية خرافية، وفي وسط الكهف نصب فوق عمود قصير تمثال صغير لإله الحب "أيروس" مصنوع من العاج

صنماً قديماً دقيقاً عجيباً، وكان هدية من نسياس، وثم عنزة من المرمر الأسود واقعة في حفرة، يظهر منها بريق عَينيها العقيقيتين، وقد التفت حول ضرعيها ستة جداء من المرمر الأبيض، وقد همت العنزة بأظلافها ورفعت رأسها الفلطاح كأنما كلت وفرغ صبرها من رضاع صغارها، وكأنها تود لو يتاح لها تسلق الصخور.

وكانت الأرض مفروشة ببساط بيزنطي، ووسائد مطرزة بأيدي الصفر من أهل كاتاي، وجلود أسود صحراء ليبيا، وكان البخور يتصاعد من المباخر الذهبية، وهنا وهناك أصص من الجزع فيها نبات مزهر، ووراء ذلك كله، في الظل الأرجواني، تلمع مسامير مثبتة في ذيل (عظم ظهر السلحفاة) سلحفاة هندية هائلة مقلوبة على ظهرها تستخدم كسرير للممثلة.

في هذا المكان، في كل يوم، بين خرير الماء، وشذا الزهور وعبير العطور، كانت تاييس تضطجع برخاوة واستسلام، في انتظار ساعة العشاء، تتحدث إلى أصحابها، أو تفكر وحدها في شؤون المسرح، أو في كر الغداة ومر العشى.

* * *

في ذلك اليوم بينما كانت جالسة بعد التمثيل في "كهف العذارى" لا حظت في مرآتها العلامات الأولى لتضاؤل جمالها وذبول حسنها فهالها التفكير في أنه سيحين أخيراً حين الشعر الأبيض والغضون والتجعدات، وعبثاً حاولت أن تسكن روعها وتؤمن خيفتها بقولها لنفسها، قول الواثق المستيقن، إن إحراق أعشاب معينة والنطق بتمائم سحرية معلومة تكفي لإعادة نضارتها الأولى...

وإذا بصوت، لا أثر للرحمة فيه، يهيب بها: "ستبلغين يا تاييس من

الكبر عتياً! ستشيخين يا تاييس ويدركك الهرم! فجمد العرق البارد على جبينها من الجزع، وطالعت وجهها ثانية في المرآة برقة بالغة، فألفت نفسها لا تزال جميلة فتانة، جديرة بأن تعشق وتشتهى، فابتسمت لصورتها وتمتمت: "ليس في الاسكندرية كلها امرأة واحدة يضارع قوامها قوامي اللدن، ولا من تماثلني في رشاقة الحركات، وبهاء الأذرع، والأذرع، أيا مرآتي، هي سلاسل الحب الحقيقية!".

وإذا كانت تفكر في ذلك رأت رجلاً مجهولاً، نحيلاً، مشتعل العينين، منتفش اللحية، مرتدياً ثوباً مزركشاً ثميناً، واقفاً أمامها، فأفلتت مرآتها من يدها، وصرخت مذعورة.

وقف بافنوس جامداً، ولما رأى مبلغ جمالها، قدم من أعماق قلبه هذه الضراعة:

_ اللهم لا تجعل وجه هذه المرأة سبباً في غوايتي، بل سبباً لهدايتي!..

ثم أرغم نفسه على الكلام، وقال:

_ تاييس! إنني من سكان أرض سحيقة نائية، وقد قادني إليك صيت جمالك. قيل أنك أبرع الممثلات وأقدر النساء، وكأن قصص ثرائك وغرامك وأهوائك من أساطير الأولين، تعيد إلى الذهن ذكرى "رودوبيس" القديمة التي يحفظ ملاحو النيل تاريخها العجيب عن ظهر قلب، فاستولت علي الرغبة في معرفتك، ولعمري أني أرى الخبر يفوق الخبر! إنك أعلم وأجمل ألف مرة مما ذاع عن علمك وجمالك، والآن إذ أراك أقول لنفسي: "يستحيل على المرء الاقتراب منها إلاّ ويترنح ترنح السكارى".

كانت هذه الكلمات ملفقة، لكن الراهب فاه بها بحرارة صادقة تحمساً للدين، فنظرت تاييس بغير استياء إلى هذا المخلوق الغريب الذي

أخافها وأدهشها بمنظره القبيح الوحشي، ونظراته الكئيبة النارية، فودت معرفة شأن هذا الرجل الذي يختلف كل الاختلاف عمن عرفتهم أجمعين.

فأجابت بسخرية رقيقة:

ـ يلوح لي أيها الأجنبي أنك سريع الإعجاب بالناس، فحذار أن تشغفك نظراتي فتبلي جسدك وتوهن العظم منك! حذار من حبي!

فقال لها:

ـ إنني أحبك يا تاييس! أحبك أكثر من حياتي، وأحبك أكثر من نفسي، لأجلك غادرت صحرائي على أسف، لأجلك نطق لساني بكلمات دنيوية، وكان قد نذر الصمت، لأجلك رأيت ما لا يصح أن أراه، وسمعت ما حرم علي سماعه، لأجلك تبلبلت روحي، وفتح قلبي، وانفجرت منه العواطف والخواطر كعيون الماء الجارية التي يشرب منها الحمام، لأجلك واصلت الليل بالنهار سارياً سائراً في مفاوز الصحارى الرملية المكتظة بالحشرات والهوام والخفافيش، لأجلك وطئت الأفاعي والعقارب حافياً! أجل، إني أحبك! أحبك لا كهؤلاء الرجال الذي تضرم الشهوات أبدانهم فيتسابقون إليك كالذئاب الخاطفة أو الثيران الهائجة، لذلك أنت عزيزة عليهم معزة الظبية على الأسد، فيلتهم حبهم الشهواني روحك وجسدك أيتها المرأة، أما أنا فأحبك بالروح والحق، أحبك في الله وإلى الأبد الآبدين، والشعور الذي يكنه صدري لك هو غيرة حقة وعطف رباني، إنني أعدك ما هو أزكى من عطر الزهر، وألذ من أحلام ليل قصير، أعدك المآدب المقدسة والأفراح السماوية، والنعيم الذي آتيك به مقيم لا يزول، نادر لم يسمع به، رائع لا يوصف وإذا قدر للسعداء في هذه الدنيا أن يروا لمحة واحدة من مثله فإنهم يموتون في الحال من شدة الذهول!!

فضحكت تاييس ضحكة المتهكم المرتاب، وقالت بخبث:

ـ عليّ يا صاحبي بهذا الحب العجيب! عجل! فإني أعد إسهابك في القول مهانة لمحاسني، فلتبادر إلى انتهاز الفرص ولا تضع لحظة واحدة! إنني لا أطيق الصبر على معرفة السعادة التي تبشرني بها، ولكنني أصارحك القول إني أخشى أن أظل جاهلة بها، وأن تنتهي وعودك كلها لي في كلمات فقط. فالوعد بالسعادة أسهل بكثير من منح السعادة، كل له موهبة، وأظن موهبتك الخطابة والكلام، إنك تقول بحب مجهول، ليت شعري، لقد مضى دهر طويل على تبادل القبل بحيث يكون من عجائب الزمن بقاء أسرار حب لم يمط عنها اللثام، والعاشقون يعرفون أكثر من السحرة في هذا الباب...

ـ تاييس لا تسخري، إنني أحمل إليك الحب المجهول.

ـ لقد أتيتني يا صاحبي متأخراً، فأنا بكل أنواع الغرام عليمة.

ـ الحب الذي آتيك به ملؤه المجد، وكل حب آخر عرفته لا يتمخض إلا بالعار!

فنظرت إليه تاييس بعين جامدة، وغشي جبينها الجميل عبوسة وتقطيب، وقالت:

ـ إنك أيها الأجنبي جريء للغاية، لتحديك ربة الدار، انظر إلي وقل لي بربك هل أبدو كمخلوقة يغمرها الرجس ويطوقها العار؟ كلا! لست خجلة مستنكفة، لا أنا ولا كل اللاتي يعشن معيشتي، ولو أنهن قد يكن دوني جمالاً ومالاً، لقد بذرت المسرة في كل خطوة خطوتها، فذاع صيتي في العالم من أقصاه إلى أقصاه فأصبحت أقوى سادة الدنيا، الذين رأيتهم عند موطئ قدمي صاغرين، انظر إلي! انظر إلى

هاتين القدمين الصغيرتين، وأعلم أنه يوجد ألوف من الرجال يشترون بأرواحهم نعمة تقبيلها، ويبذلون دماءهم ليحظوا بهذه اللذة، نعم، لست رفيعة العماد أو أشغل حيزاً كبيراً من فراغ هذه الدنيا، وإنني أبدو كحبة أرز لأولئك الذين ينظرون إلي من قمة السرابيوم عندما أمر في الطريق، غير أن حبة الأرز هذه قد تكفي لتملأ أودية التتر[1]، وبعد: ألست مجنوناً أيها الرجال إذ تذكر العار مع أن كل ما يحيط بي يهتف بالمجد؟

_ إن ما هو مجيد في عيون الرجال مرذول عند الله، لقد نشأنا كلانا، أيتها المرأة، في بلاد مختلفة، فلا عجب إن تباينت آراؤنا واختلفت لهجاتنا، ومع ذلك فأشهد السماء على أن مرامي الاتفاق معك، وقصدي ألا أغادرك قبلما تتوحد مشاعرنا، من ذا الذي يوحي إلي بكلمات مشتعلة تجعلك تذوبين _أيتها المرأة _كالشمع تحت حرارة أنفاسي، وتجعل يد إرادتي تكونك كما تشاء؟ أية قوة تسلمك إلي يا ريحانة النفوس لتفطرك ثانية الروح التي تحييني كي تسمك بجمال جديد، فتصيحين، وأنت من الفرح تبكين، "اليوم وحده يوم مولدي!"، من ذا الذي يجعل "جرن معمودية القدس" ينبوعاً يتفجر من صدري حيث تجدين فيه بعد الظهر نقاءك الأول؟ من ذا الذي يحولني "أردن[2]" تغمرك مياهه فتمنحك الحياة الخالدة؟

فهدأت ثائرة تاييس وقالت في نفسها:

_ هذا الرجل يتكلم عن خلود الحياة، وكأن كل ما يفوه به مكتوب فوق طلسم، فلا شك أنه ساحر، ولديه أسرار مقاومة الشيخوخة والموت.

فاعتزمت أن تهب نفسها له، ولهذا تظاهرت بالخوف منه، وخطت

إلى الوراء مرتدة إلى آخر كهف العذارى، وجلست فوق حافة الفراش وقدماها الحافيتان تهتزان في رفق ولين، ورفعت قميصها بلباقة، ثم لبثت ساكنة، ساكتة، لا تبدي حراكاً... تنتظر.. بعيون سبلاء. وقد ألقت أهدابها الطويلة على الخدين ظلاً خفيفاً وكان مظهرها ينم عن حياء وخفر، فشابهت بنتاً تحلم وهي متكئة عند حافة غدير.

نظر إليها بافنوس ولم يتحرك، ولم تعد ركبتاه المرتجفتان تقويان على حمله، وجف لسانه في فمه، واعترى دماغه دوي هائل، وأغشى عن بصره، فعاد لا يرى أمامه سوى سحابة كثيفة، فظن أن يد يسوع قد ألقيت على عينيه لتحجب منظر المرأة عنه، فاطمأن لهذا العون واشتدت عزيمته، وقال بوقار يليق بشيخ الصحراء:

_ افتظنين أنك إذا وهبت نفسك لي تخفي على الله!

فهزت رأسها قائلة:

_ الله!.. ومن ذا الذي يكرهه دائماً على مراقبة كهف العذارى؟ فلينصرف عنا إذا كنا نسوؤه! ولكن كيف نسوؤه؟ أما وقد خلقنا، فليس له أن يستاء أو يدهش إذا رآنا، كما برأنا وصورنا، نفعل الكثير، وعزي إليه ما ليس بصحيح على الإطلاق، فهو منه براء، وأنت أيها الأجنبي، ألك معرفة أكيدة بحقيقة أمره وجوهريته؟ ثم من تكون أنت حتى تخاطبني باسمه!..

وعند هذا السؤال فتح الراهب قليلاً حليته المستعارة، وأبان عن ثوبه الوبري، وقال:

_ أنا بافنوس، كاهن أنصينا الأكبر، جئت من الصحراء المقدسة، واليد التي أبعدت إبراهيم عن بلاد الكلدانيين، ولوط عن سادوم، هي

التي فرقت بيني وبين العالم، لقد احتجبت عن الناس، لكن رسمك ظهر لي في مقدسي الرملي، فعرفت أن نفسك مفعمة بالفساد، وإن كان فيك المنون، وهأنذا أمامك أيتها المرأة وكأنني أمام جدث، وإنني أصيح بك: "انهضي يا تاييس!".

ولما سمعت اسم بافنوس، وكلمتي راهب، وكاهن أكبر، امتقع لونها رعباً وزحفت متشابكة اليدين، شعثاء الشعر، إلى قدمي القديس وهي تنوح، وتتأوه قائلة:

_ لا تؤذني، ما الذي جاء بك؟ ماذا تبغي مني؟ لا تؤذني؟ أنا أعرف أن أولياء الصحراء يمقتون النساء اللاتي خلقن على شاكلتي متعة للرجال، إنني أخشى أن تمقتني، وأن تكون راغباً في إيذائي، فاغرب عني! أنا لا يخامرني شك في مقدرتك، لكن أعلم يا بافنوس أنه ليس لك أن تحتقرني أو تمقتني، فما سخرت قط من فقرك الاختياري، كما فعل كثير من الرجال، فعليك بدورك ألا تجعل ثرائي جرماً، إنني حسناء، وممثلة حاذقة، مسيّرة لا مخيرة فيما أنا عليه، وقد خلقت لما أنا فيه، وولدت لأفتن الرجال وأنت نفسك قلت الآن أنك أحببتني، فلا تستخدم علمك في البطش بي، ولا تفه بكلمات السحر التي تتلف جمالي أو تبدلني عموداً من الملح.. لا ترعبني! فإنني خائفة جد الخوف، لا تجرعني كأس المنون، فلشد ما أخاف الموت!

فأشار إليها أن تنهض، وقال:

_ هدئي روعك يا بنية، فلن أسومك المذلة. إني أتيتك من قبل ذلك الذي جلس فوق حافة البئر، وشرب من إبريق المرأة السامرية المقدم إليه[4]، وهو الذي عندما تعشى في بيت سيمون ضمخته مريم بالعطور،

لست بلا خطيئة لأرميك بأول حجر، فقد طالما أسأت استعمال ما لا يحصى من نعم الله التي أسبغها علي، ليس ثمة غضب، وإنما هي الرحمة بك أخذت بيدي وجاءت بي إلى هنا، والحق أقول، إني كنت قادراً على التقرب منك بكلمات الحب والهيام، إنما حرارة إيماني هي التي قادتني إليك، إنني اشتعل بنار الإحسان، وإذا كانت عيناك اللتان لم تتعودا النظر إلا إلى نقائص البدن وعوراته تستطيعان أن تنظرا إلى الأشياء بحقيقتها الروحانية فلأظهرن إذن لك كغصن منتزع من تلك العليقة المشتعلة التي أراها الله لنبيه موسى القديم في البرية، ليعلمه الحب الصادق، الحب الذي يشعلنا دون أن يبلينا، فلا يترك جمراً أو رماداً، إنما بلسماً وعطراً يضمخان كل ما يتخلله إلى آخر الدهر.

ـ إنني أصدقك، أيها الراهب، ولست أخشى بعد خدعة منك أو مضرة، لقد طالما سمعت أخبار نساك طيبة، والحكايات التي بلغتني عن حياة أنطوان وبولس غريبة، ولم يكن اسمك خافياً علي، ولقد خبروني أنك، على حداثة سنك، تضارع في الفضل أكبر الزاهدين، ومع أني لا أعرف حقيقة أمرك، أشعر بأنك لست رجلاً عادياً، ألا فخبرني، أتستطيع أن تعمل لي ما عجز عن عمله، كهنة أزيس وهرمس وبولو والسحرة الكلدانيون جميعاً، وما لم يستطعه العرافون البابليون؟ أيها الراهب، إذا كنت تحبني فهل تستطيع أن تحول بيني وبين الموت؟

ـ أيتها المرأة، إن من يرغب في الحياة يحيا، فاعرضي عن الملذات السافلة التي تهلكين بها أبداً، انتزعي جسدك الذي فطره الله من رضابه ونفخ فيه من روحه، انتشليه من أيدي الشياطين الذين يوشكون أن يحرقوه إحراقاً، تعالي أيتها التي أضناها التعب وردي موارد الزهد

المباركة، تعالي انهلي من تلك العيون المخبوءة في الصحراء التي تنفجر من السماء! أيتها النفس القلقة المتلهفة، تعالي تنالي ما تشتهين! أيها القلب الشره الطامح إلى الجدل، عليك أن تجذل حقيقة بتذوق طعم الفقر والعزلة، وإنكار الذات وتركها في حضن الله، يا عدوة المسيح الآن، ويا حبيبته غداً، تعالي إليه! تعالي إليه! تعالي يا من بحثت وفتشت وستقول: " هاأنذا قد وجدت الحب الحقيقي!".

وكان يلوح على تاييس أنها تتفرس في أشياء بعيدة، فسألته:

ـ صحيح أيها الراهب أنني إذا نبذت المسرات وتبت، أولد ثانية في السماء سليمة الجسم موفورة الجمال؟

ـ تاييس، إنني أحمل إليك الحياة الخالدة، فثقي بي، لأن ما أبشرك به هو الحق..

ـ ومن يضمن لي أنه الحق؟

ـ داود، والأنبياء، والكتب المقدسة، والمعجزات التي سوف تشهدين...

ـ أراني أميل إلى تصديقك، أيها الراهب، لأني أسلم بكوني لم أجد في هذه الدنيا هناء، كان نصيبي أعظم من نصيب ملكة ومع ذلك فقد صبت الحياة على رأسي صنوف الآلام والمتاعب وهاأنذا قد عييت كثيراً وضقت ذرعاً بوجودي، كل النساء يحسدنني، مع أنني طالما حسدت المرأة العجوز الدرداء التي كانت وأنا صغيرة، تبيعني أقراص الشهد تحت إحدى بوابات المدينة وقد خطر لي غير مرة أن الفقراء هم وحدهم الصالحون السعداء المباركون، وأن في هذه الحياة الوضيعة الوديعة تعزية وسلوى، فيا أيها الراهب، لقد هجت أمواج حياتي،

وطفـوت إلى السطح بتلك التي رسبت في القـاع... ترى من أكـون أنا لأؤمن؟ وا أسفاه!.. وما عساي أن أكون؟ وما هي الحياة؟..

وفي أثناء كلامـهـا تغيـرت مـلامح بافنوس وأضـاء وجـهـه بفـرح سماوي، فقال:

_ اسمعي! إنني مـا دخلت إلى مسكنك وحدي، بـل صحبني آخر، وهو واقف هنا بجـانبي، لا تسـتطيـعين أنت رؤيتـه، لأن عـينيك لا تسـتـأهلان بعـد مـشاهدته، ولكنك لا تلبثين أن ترينه بجلاله وجمـاله، وتقولين: "هو الجدير بالحب وحده!" ولو لـم يكن قد وضع الآن يده الناعمة فـوق عـيني، يا تاييس، فلربما كنت اقتـرفت مـعك الخطيـئـة، لأنني أنا نفسي مثال الضعف والوهن، لكنـه أنقذنا معاً، إنه صالح كما هو قدير واسـمه "المخلص"، وقـد بشـر الدنيـا به داود والأنبيـاء وسـجد له الرعـاة والمجوس، وهو لا يزال في المهد صبياً، وقد صلبه الفريسيـون، ودفنتـه القديسـات، وأظهـره الحواريون للعـالم، وشهـد به الشـهداء، وهو الذي لما علم بأنك تخشين الردى، أتى بي إلى بيـتـك ليـدفع عنك غـائلة الردى! أليس كذلك يا يسوع؟ أو لست تظهر في هذه اللحظة كما ظهرت لأهل الجليل في تلك الأيام العجيبة، عندما هوت معك النجوم من السموات، وصارت قريبة من الأرض، بحيث تناولها الأطفال القديسون بأيديهم وهم يلعبـون في أحضـان أمـهـاتهم فوق سطوح بيت لحم؟ ألسنا يا يسـوع في حضـرتك، وإنك تظهر لنا حقيـقة ناسوتك المقدس؟ أليس ذاك وجهك؟ أو ليست العبـرة التي تنحدر فوق خدك هي عبـرة صادقـة؟ أجل! إن ملك العـدل الأزلي سـوف يتلقـاها فـتكون فـدية لروح تاييس، ألست هنا يا يسوع؟ إن شفتيك المستحقتين للعبادة مفتوحتـان، إنك تستطيع الكلام،

تكلم، فكلي آذان صاغية، وأنت يا تاييس، يا تاييس السعيدة، أصغي لما يقوله لك المخلص نفسه، إنه يتكلم من دوني قائلاً لك: بحثت عنك طويلاً يا شاتي الشاردة، وها قد وجدتك! فلا تشردي مني بعد الآن، هات يديك أيتها البنية المسكينة، ودعيني أحملك فوق كتفي إلى حظيرة السموات، تعالي يا تاييسي! تعالي يا صفيتي! تعالي واذرفي الدموع معي".

وسقط بافنوس على ركبتيه وعيناه تنفثان ذهول الانجذاب... ولما رأت تاييس على وجهه صورة يسوع الحي، قالت في زفراتها:

_ واها لأيام طفولتي الماضية! واها لأبي الروحي أحمس! أيها القديس الصالح تيودور، لماذا لم أمت في دثارك الأبيض عندما كنت تحملني في مطلع الفجر ندية بماء المعمودية؟

فوثب بافنوس نحوها صائحاً:

_ أنت عمدت!.. يا للحكمة الربانية! يا للعناية الإلهية! الآن عرفت القوة التي اجتذبتني نحوك، الآن عرفت ما صيّرك هكذا عزيزة عليّ جميلة في عيني! فالفضل كل الفضل لماء التعميد الذي جعلني أترك ظل الله، حيث كنت أسكن، لأبحث عنك في جو العالم المسموم. لا ريب أن قطرة، قطرة من الماء الذي غسل جسدك، قد سقطت على جبيني، فتعالي يا أختاه وتقبلي من أخيك الروحي قبلة السلام!.

ولثم الراهب جبين البغي...

ثم سكت وترك حبل القول لله... ولم يكن يسمع في كهف العذارى سوى زفرات تاييس ممزوجة بخرير المياه الجارية.

بكت، ولم تكفكف عبراتها، ولا حبست انهمارها، في حين دخلت جاريتان سوداوان بالثياب والعطور وتيجان الزهور.

فقالت، وهي تحاول أن تبتسم:

ـ ليس البكاء من حسن الرأي، فالدموع تحمر منها العيون، ولونها يفسد بها، وإذ أنني مزمعة أن أتعشى الليلة مع بعض الأصدقاء، أروم أن أكون فتانة، لأنه سوف يكون هناك نساء جميلات، فلا أريد أن يلحظن آثار الضعف على محياي، وهاتان الجاريتان جاءتا لإلباسي، فتنح قليلاً يا أبي وأتركهما يفعلان ذلك، إنهما ماهرتان محنكتان وقد اشتريتهما بثمن غال، انظر إلى إحداهما ذات الخواتم الذهبية الكبيرة والأسنان الجميلة، إني غنمتهما من امرأة الحاكم.

ففكر بافنوس بادئ الرأي في رد تاييس بكل قواه عن الذهاب إلى هذا العشاء، على أنه آثر أخيراً أن ينصرف بفطنة فسألها عمن ستلقاه هناك؟

فأجابت: إنها سترى صاحب الوليمة، الشيخ كوتا مدير العمارة البحرية، ونسياس، وكثيرين غيرهما من الفلاسفة والمولعين بالحوار، والشاعر كاليكرات، وكاهن سيرابيس الأعلى، وبعض الشبان الأغنياء من هواة تربية الخيول، ونساء لا يمكن ذكر شيء عنهن، فلا فضل لهن غير الشباب ونضارته.

قال الراهب بإلهام سماوي:

ـ اذهبي إليهم يا تاييس! اذهبي، بيد أني لن أتركك... سأذهب معك إلى هذه المأدبة وأبقى بجانبك ملازماً الصمت والسكون.

فضحكت تاييس، وصاحت بالجاريتين تلبسانها حليها:

ـ ترى... ماذا عسى أن يقولوا عندما يرون لي عاشقاً من رهبان طيبة؟

الهوامش:

١ _ الخنوص : الخنزير الصغير .
٢ _ Tartarus الجحيم عند اليوناني الأقدمين .
٣ _ نهر الأردن المعروف في فلسطين .
٤ _ يقصد به السيد المسيح .

المأدبة

لما دخلت تاييس قاعة المأدبة، ووراءها بافنوس، كان أكثر المدعوين قد اجتمعوا متكئين على الأرائك أمام مائدة على شكل حدوة الفرس فوقها كثير من الأواني اللامعة، وكان في وسطها حوض من الفضة، تعلوه أربعة تماثيل منحنية بقرب يتدفق منها مرق على سمك مسلوق يسبح فيه...

فلما أقبلت تاييس، علا الهتاف لها من جميع الأرجاء:

ـ سلام على ربة الحسن والبهاء؟

ـ سلام على عروس التمثيل الصامت، التي تعبر نظراتها عن جميع الأشياء؟

ـ سلام على محبوبة الآلهة والناس بلا استثناء!

ـ سلام على المشتهاة كل الاشتهاء!

ـ سلام على لؤلؤة "راكوتيس"!

ـ سلام على وردة الاسكندرية!

فانتظرت تاييس بفروغ صبر همود عاصفة التهليل والثناء، ثم قالت لمضيفها "كوتا":

ـ لقد جئتك يا لوليوس براهب من الصحراء، بافنوس، كبير كهنة أنصينا، وهو رجل قديس، كلماته تحرق كالنار...

فنهض "لوليوسَ أوريلوس كوتا"، قائد الأسطول، قائلاً:

ـ مرحباً بك يا بافنوس، يا من يؤمن بالعقيدة المسيحية، إني أجل بعض الإجلال ديناً أصبح الآن امبراطورياً، فقد أحل قسطنطين العظيم إخوانك في الدين المحل الأول بين أصدقاء الدولة، وحقاً أنه قد آن للحكمة اللاتينية أن تسمح بدخول مسيحكم معبد أربابنا[1] ومما يؤثر عن آبائنا قولهم: إن في كل رب شيئاً من الألوهية، لكن لندع هذا جانباً، ولنشرب، ونطرب، ونروح القلب باللذات فالوقت سمح والزمان مؤات.

قال هذا وهو منشرح الصدر، إذ كان قد فرغ من اختراع سفينة جديدة، وأتم الجزء السادس من تاريخ كان يكتبه عن قرطاجنة، ولوثوقه بأنه لم يضع يومه سدى، كان راضياً عن نفسه وعن الآلهة.

ثم قال:

ـ ترى هنا يا بافنوس رجالاً كثيرين جديرين بالمحبة والاحترام:

هيرمودوو كاهن سرابيس الأعظم، والفلاسفة دوريون، ونسياس، وزينوتميس، والشاعر كاليكرات، والفتيان شيراس وأريستوبول، وهما ابنا رفيق شبابي الأعزاء، وبقربهما فيلنا ودروسيه وهما حقيهما أن يعجب بهما كثيراً لفرط جمالهما...

فعانق نسياس بافنوس وهمس في أذنه:

ـ لقد أنذرتك يا أخي بما للزهرة من بأس شديد، أليس سلطانها العنيف اللين هو الذي قادك قسراً إلى هذا المكان؟.. اسمع، إنك رجل شديد التقى، لكن إذا لم تسلم بأنها أم الآلهة فهلاكك محتم، واعلم أن الشيخ "ملانت melanthus" الرياضي كان يقول: "إنني لم أستطع إثبات خواص المثلث بغير مساعدة الزهرة".

وكـان دوريون يطيل النظر إلى القـادم الجـديد، ومـا لبث أن صـفق بيديه، وصاح صيحة الدهشة:

ـ إنه هو يا صحب! نظرته، لحيـته، طيلسـانه ـهو بعينه! لقيته في الملعب وكـانت تاييـسنا تكشف عن ذراعـيـهـا البـديعـتين، فـاضطرب اضطراباً شـديداً، وأشـهـد أنـه تكلم بحـدة وحـمـيـة، إنه رجل شـريف، وسيكون نصيبنا منه اللعنات، فصاحـتـه رائعـة، وإذا كـان مـاركـوس هو أفـلاطون المسـيـحـيين، فـبافنوس ديموسـتـينهم ولعـمـري أن أبيـقـور، في حديقته الصغيرة، لم يطرق سمعه مثل ذلك قط.

وفي تلك الأثناء، كانت فـيلنا ودروسيه تكادان تفترسان بأعينهما تاييس وقـد وضعت فـوق شعـرها الأشقـر تاجاً مـن البنفسج الذابل، كل زهرة منه تمثل لون حدقـتـيهـا حـائلاً، حتى لاح الزهر كأنه نظرات زائغة، وبدت عيناها كزهرتين متألقتين...

ومما امتـازت به تاييس أن كل ما عليـها كـان يتألق بنور الحياة وروح الانسـجـام... فكان لثنيـات ثوبهـا الأرجـواني المطرز بخـيـوط الذهب والفضـة رونق عليه مـسحة من الشجن لا تبدلها الأساور والقلائد بهـجة، وكان البهاء كله في ذراعيها العاريتين.

فلم يسعـهما إلا الإعـجاب بثوب تاييـس وزينتها، وإن لم تشيرا إلى ذلك بكلمة.

قالت فيلنا:

ـ يا لك من فـتانة! لم تستطيعي أن تكوني الآن أجمل منك عندما قـدمت الاسكندرية، لأن أمي التي رأتك حينذاك تقول أنه قل من النسـاء من تستحق أن تشبه بك.

وسألتها دروسيه قائلة:

ـ من يكون إذن ذلك العاشق الجديد الذي جئتنا به؟ إن هيئته غريبة وحشية، وإذا كان للفيلة رعاة فلا ريب أنهم يكونون على صورته، فأين وجدت، يا تاييس، هذا الصاحب الوحشي؟ لعله من سكان الكهوف والمغاور الذين يعيشون تحت الأرض ملطخين بدخان سقر؟

فوضعت فيلنا إصبعها على فم دروسيه، وقالت:

ـ صه! يجب أن تبقى أسرار الحب في طي الكتمان، لأن إذاعتها محرمة! أما أنا فأفضل أن يقبلني فم بركان "أتنا" المدخن على أن تقبلني شفتا هذا الرجل! لكن حبيبتنا تاييس الجميلة الجديرة بالعبادة كالآلهة، عليها أن تتقبل كآلهة دعاء جميع المتوسلين، وليست مثلنا تأبى الغرام إلا على زين الشباب.

فقالت لها تاييس:

ـ احذرا! إنه عراف ساحر، يسمع الهمس الضعيف، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو قادر على أن يختطف قلبيكما أثناء نومكما ويضع بدلاً منهما اسفنجتين، حتى إذا شربتما ماء في اليوم التالي تموتان اختناقاً.

ثم نظرت إليهما وقد شحب لونهما، وطوت كشحاً عنهما، وجلست بجانب بافنوس على أريكته.

ووقف كوتاهدر الحديث بصوته الذي في نبراته رنة الإمارة ورقة الترحيب.

ـ الزموا أماكنكم أيها الإخوان! صبوا النبيذ المعسول أيها العبيد!

ثم رفع رب البيت كأسه قائلاً:

_ لنشرب أولاً نخب قنسطانس، سليل الآلهة ورمز عبقرية الدولة! يجب أن يقدم الوطن على كل شيء، حتى على الآلهة، لأنه يأويهم في أرضه، ويضمهم في كنفه أجمعين.

فرفع كل المدعوين كؤوسهم المترعة إلى شفاههم إلا بافنوس، أبى واستكبر، لأن قنسطانس كان يضطهد عقيدة أهل "نيسيه"، ولأن وطن المسيحي ليس في هذا العالم.

فتمتم دوريون بعد أن شرب:

_ ما الوطن؟ إنه نهر جار، ضفافه تتبدل وأمواجه تتجدد على الدوام.

فأجاب قائد الأسطول:

_ أعرف يا دوريون أنك قلما ترعى جانب القوى الوطنية، وإنك تعتقد أنه يجب على الحكيم، أن يعيش بنجوة عن الشؤون العامة، أما أنا فأرى أن الرجل الشريف يجب ألا يتمنى أكثر من أن يشغل منصباً سامياً مسؤولاً في الدولة، فما أجمل الدولة وما أجلها!

فوصل هيرمودور، كبير كهنة سرابيس، حبل الحديث بقوله:

_ سأل دوريون: "ما الوطن؟" وجوابي على ذلك أن الوطن عبارة عن محاريب الآلهة ومقابر الأجداد، فالإنسان مواطن سواه بالاتحاد معه في الذكريات والأماني.

فقاطعه الشاب أريستوبول قائلاً:

_ بحق التوأم الأول[٢] لقد رأيت اليوم لصاحبنا ديموفون جواداً كريماً، له فك ضئيل، وقائمتان بديعتان، رافعاً رأسه الواجف، مزدهياً ازدهاء الديك!

فهز شيراس الفتى رأسه قائلاً:

ـ إنه ليس بالجواد الكريم كما تدعي، فله حوافر دقيقة، وعراقيبه توشك أن تمس الأرض، ولا يلبث أن يصاب بالعرج، وكانا سيستمران في حوارهما لولا أن صرخت دروسيه صرخة عالية:

ـ آي! كدت أبتلع حسكة أطول وأحد من الخنجر، ولحسن الحظ أخرجتها من حنجرتي قبل فوات الوقت، إن الآلهة تحبني!

فسألها نسياس مبتسماً:

ـ أتقولين يا عزيزتي دروسيه أن الأرباب بحبك هائمون؟ إذن فليساهموا الناس العلل! لأن الحب يقضي بالشقاء الأبدي على من يصاب به، وهو دليل على الضعف، فالحب الذي تشعر به الآلهة نحو دروسيه حجة دامغة على عدم بلوغهم حد الكمال.

فاشتد غضب دروسيه لهذه الكلمات، وقالت:

ـ إن ما قلته يا نسياس حماقة لا تستحق الجواب، ومن طبعك ألا تفهم ما يقال، وأن تقول ما لا معنى له.

فابتسم نسياس ثانية وقال:

ـ تكلمي، تكلمي يا عزيزتي دروسيه، لا بأس بكل ما تقولين، فعلينا أن نشكرك كلما فتحت فاك، فما أبهى ثناياك!

* * *

وعندئذ دخل البهو شيخ وقور، مهمل اللباس، متئد الخطا، عالي الرأس، وفض المكان بنظره محدقاً في الحاضرين بسكون، فأشار إليه كوتا ليجلس بجانبه فوق أريكته، قائلاً:

ـ أهلاً بك وسهلاً يا يوكريت! هل من رسالة فلسفية جديدة كتبتها

هذا الشهر؟ ستكون، إذا صح حسابي، الثانية والتسعين التي خطتها قصبتك النيلية بيديك الأثينية..!

فأجاب يوكريت، وهو يعبث بلحيته الفضية:

ـ إن الهزار خلق ليشدو، وخلقت لأحمد الأرباب الخالدين[3].

دوريون (Dorion):

فلنحيي باحترام، في شخص يوكريت، آخر الرواقيين، إنه وقور رزين، يقوم في وسطنا مكللاً بجلال المشيب، كصورة الأسلاف! تراه بين الجماهير منفرداً، يفوه بعبارات غير مفهومة.

يوكريت (Eucritus):

هذا خطأ منك يا دوريون، ففلسفة الفضيلة لم تنعدم من هذا العالم، وأن لي أتباعاً كثيرين في الاسكندرية وروما والقسطنطينية، سواء من العبيد الأرقاء أو أعضاء الأسرة القيصرية، يعرفون الآن كيف يحكمون أنفسهم ويعيشون أحراراً، وهم بعدم اكتراثهم لشيء سعداء كل السعادة، كثيرون يحيا فيهم "أبيكتيتوس" و"ماركوس أوريلوس"[4]، لكن إذا صح أن الفضيلة قد انطفأت جذوتها من الأرض إلى الأبد، ففي أي شيء تعني خسارتها هنائي، ما دام بقاؤها وعدمها لا يتعلقان بي؟ إن الحمقى، يا دوريون، هم وحدهم الذين يقفون سعادتهم على ما تنقطع دونه أيديهم، إنني لا أشتهي ما لا تشاؤه الآلهة، واشتهي كل ما يشاءون، بهذا أصبحت مثلهم أشاركهم في مسرتهم المحققة، فإذا ماتت الفضيلة رضيت بموتها، وملأني هذا الرضا سروراً، كالمجهود الأعلى لعقلي وشجاعتي، ولسوف تتشبه حكمتي في جميع الأمور بالحكمة الإلهية، فتأتي الصورة أثمن من الأصل، لأنها تكلف شيئاً كثيراً من العناية، وكثيراً جداً من المجهود.

نسياس (Nicias):

لعلي فاهم ما ترمي إليه، إنك تضع نفسك في مستوى العناية الإلهية، لكن إذا كانت الفضيلة تنحصر في المجهود وحده يا يوكريت، وفي ذلك الإجهاد الذي به يزعم تلاميذ، زيتون،[5] إنهم يجعلون ذواتهم أشباهاً للآلهة، فالضفدعة التي تنتفخ لتصير ضخمة كالعجل تؤدي أكبر عمل من أعمال الرواقيين.

يوكريت (Eucritus):

أراك تسخر يا نسياس، وقد برعت كعادتك في تهكمك، ولكن إذا كان العجل الذي ذكرته إلهاً حقيقياً كأبيس، أو كالثور الذي تحت الأرض _الذي أرى هنا كاهنه الأكبر _وإذا كانت الضفدعة تثقف وتؤتي الحكمة فتنجح في مضارعته، ألا تكون في الحقيقة أفضل من العجل؟ وهل يسعك إلا الإعجاب بحيوان صغير كهذا أوتي مثل هذا الفضل العظيم؟

وضع أربعة من الخدم فوق المائدة هلوفاً[6] مغطى بهلبه، وخنانيص مصنوعة من الفطير أحاطت بالحيوان كأنها تريد أن ترضعه، إشارة إلى أنه أنثى.

فاتجه زينوتميس نحو الراهب قائلاً:

_ قد جاءنا أيها الأصدقاء ضيف من تلقاء نفسه! وأعني به بافنونس العظيم الذي يحيا في التنسك هذه الحياة الغريبة، فهو ضيفنا غير المنتظر.

كوتا (Cotta):

قل خيراً من هذا يا زينوتميس، قل أن له صدر المكان لأنه قد أتى بغير دعوة.

زينوثميس (Zenothenis):

يلزمنا أيضاً يا عزيزي لوسيوس، مبالغة في إكرامه، أن نتوخى ذكر ما يطيب له سماعه، وعلى ذلك، فيقيناً أن رجلاً مثله أقل تأثراً بتوابل اللحوم منه بعطر الأفكار الجميلة، ولا ريب في أننا ندخل على نفسه السرور بتوجيه الحديث إلى عقيدة المسيح المصلوب التي يعتنقها، أما أنا فأقدم نفسي للحوار عن طيب خاطر، لأن هذه العقيدة تلذ لي كثيراً لاختلاف رموزها وتباين كناياتها، وإذا كان ما نقرؤه عنها يدل حقيقة على روح هذا الدين، فهو إذن دين ملؤه الحقائق، وأرى الكتب المسيحية حافلة بآيات الوحي الإلهي، على أني لا يمكنني يا بافنوس أن أسوي بيننا وبين كتب اليهود التي لم تلهم، كما يدعى، من روح الله بل من روح جن، فإن "يهوه"[٧] الذي أملاها هو أحد تلك الأرواح التي تعمر الطبقات الجوية السفلى، وتبعث بالجانب الأكبر من الأمراض التي تفتك بنا، غير أنه يبزها جميعاً في الجهالة والقسوة، على النقيض من ذلك الثعبان ذي الأجنحة الذهبية الذي لف طياته اللازوردية على شجرة المعرفة، فقد كان مخلوقاً من النور والحب، فلم يكن ثمة يد من المشادة بين هاتين القوتين _هذه القوة المنيرة وتلك القوة المظلمة _وقد وقع ذلك النزاع بعد خلق الدنيا، إذ دبر "يهوه" _لسوء حظ آدم وحواء، وهما أول رجل وامرأة كانا يعيشان عاريين سعيدين في جنة عدن _وسيلة للسيطرة عليهما وعلى جميع ذريتهما، ولما لم يكن في حوزته فرجار أو قيثارة، وكان كذلك جاهلاً بالعلم الذي له السلطان، وبالفن الذين يستميل القلوب، فقد روع هذين الساذجين المسكينين بأشباح مخيفة، وتهديدات تخيلية، ورعود وبروق، وصواعق، ولما أحس آدم وحواء بظله فوق

رأسيهما، التصق كل منهما بالآخر وضاعف الخوف حسيهما، فأشفق الثعبان الحكيم عليهما، ورأى أن يثقفهما بالعلم حتى لا تضللهما الخرافات والأكاذيب، وتطلب هذا المسعى فطنة نادرة وحزماً فائقاً، بيد أن الشيطان الكريم الصادق النية تلافى الأمر بحكمته، فاقترب منهما بغير علم يهوه _الذي كان يدعي رؤية كل شيء، وكان في الحقيقة قصير النظر _وجذب بصرهما بأبهة درعه وبريق أجنحته، ثم روض عقليهما بأن رسم أمامهما، بجسمه، أشكالاً متقنة، كالدائرة والأهليلج والحلزون، التي عرف الإغريق خواصها العجيبة منذ ذلك الحين، فعني آدم بالتأمل في هذه الأشكال الهندسية أكثر من حواء، لكن لما بدأ الثعبان يتكلم ويعلمهما أسمى الحقائق تلك التي لا يمكن التدليل عليها، وجد أن آدم المخلوق من طين ذا طبيعة أكثف جداً من أن تجعله يدرك تلك العلوم الدقيقة، وأن حواء، بالضد، قد استطاعت فهمها بسهولة لكونها أرق قلباً وأدق إحساساً، لذلك حدثها وهي وحدها، في غياب زوجها لتكون أول من يطلع على...

دوريون:

_اغتفر مقاطتي لك يا زينوتميس، لقد تبينت أول الأمر من الخرافة التي قصصتها علينا إحدى وقائع الصراع بين "بالاس أتينا"[٨] والجبارة، ولعمري أن يهوه ليشبه جد الشبه "تيفون"[٩] والأثينيون يمثلون "بالاس" وإلى جانبها ثعبان، غير أن ما قلته الآن جعلني أشك فجأة في ذكاء الثعبان الذي تذكر، وفي إخلاصه، فلو صح أنه أوتي الحكمة، أفنراه يودعها رأس أنثى صغير الحجم لا يقدر أن يسعها؟! أوثر أن أعتقد أنه كان مثل يهوه جاهلاً كذاباً، واختار حواء لأنها أسهل انخداعاً، ولأنه توسل في آدم ذكاء وتبصرة.

زينوتميس:

أعلم يا دوريون أن أسمى الحقائق وأفضلها لا يدرك بالبصيرة والذكاء، بل بالحس والشعور، ولهذا ترى النساء بوجه عام أقل إدراكاً من الرجال، ولكنهن أدق منهم إحساساً، فيصلن بسهولة إلى قمة المعرفة بالمسائل الإلهية، ولهن موهبة الرجم بالغيب، وإني لأستصوب تمثيل "أبولو"[١٠] العازف بقيثارته، ويسوع الناصري مرتدين كالنساء ثياباً فضفاضة، ومهما يكن رأيك يا دوريون فالثعبان الذي هدى حواء كان حكيماً لتفضيله، في عمله النوراني، حواء التي هي أنصع بياضاً من الحليب والكواكب على آدم الثقيل الظل! فقد صغت إليه طوعاً، وانقادت إلى شجرة المعرفة التي تمتد فروعها إلى السماء، والتي بللها الروح القدس كالندى، وكانت هذه الشجرة يانعة بأوراق تنطق بألسنة الشعوب المقبلة، وتؤلف أصواتها المجتمعة موسيقى كاملة، وكانت أثمارها الوافرة، تغذي المهتدين وتعلمهم الأسماء كلها، من معادن وأحجار ونبات، وقوانين الطبيعة والخلق، ولكنها كانت لهيباً لا يجرؤ الذين يخشون الألم والموت على ادنائها من شفاههم، أما حواء فبعد أن صغت بانتباه إلى دروس الثعبان، تحررت ورفعت نفسها عن مستوى المخاوف الفارغة، واشتهت أن تذوق الثمار التي تؤدي إلى معرفة الله، لكنها كان تحب آدم فلم تشأ أن يكون دونها، فأخذت بيده وقادته إلى الشجرة العجيبة، وقطفت تفاحة ملتهبة، وأكلت منها ثم قدمتها إلى رفيقها، ولكن ساء حظهما إذ باغتهما يهوه، وكان يتنزه متعسفاً في الجنة، فلما رأى أنهما قد علما ما كان مجهولاً لديهما، تملكه غضب فظيع، وكانت غيرته شر ما يتقى فاستجمع قواه وأحدث في الجو السفلي

ضجة جزع من هولها ذانك الكائنان الضعيفان، فأفلتت الثمرة من يد الرجل، أما المرأة فقد تعلقت بعنقه وقالت: "أريد أن أقاسمك الجهل والألم!" فلما انتصر يهوه أبقى آدم وحواء وذريتهما في ذهول وفزع، وفازت صناعته التي لم تكن تتعدى خلق الشهب الغليظة، وفاقت علم الثعبان الذي كان موسيقاراً ومهندساً، فعلم الناس الظلم والجهل والقسوة، ومكن للشر في الأرض، طارد قابيل ونسله لأنهم كانوا أهل جد وعمل، وآخذ الفلسطينيين بشعرهم الأورفي ومواعظهم العيسوية فأفناهم على بكرة أبيهم، ثم صار للعمل والجمال عدواً لا تبرد غلته، وقد ظل النوع الإنساني قروناً متعاقبة غارقاً في بحار من الدموع والدماء تكفيراً لهزيمة الثعبان المجنح، وكان بين الإغريق، لحسن الحظ، دهاة مثل فيثاغورس وأفلاطون، فأدركوا بقوة عبقريتهم الأشكال والأفكار التي حاول عدو يهوه عبثاً تعليمها للمرأة الأولى، كانت روح الثعبان فيهم ولذلك كرم الأثينيون صورته كما قال دوريون، وأخيراً، ظهرت ثلاثة أرواح علوية بأشكال بشرية: يسوع الجليلي، وبأزيليد، وفالنتان، وقد أنعم عليهم باجتناء أفضل الثمار من شجرة المعرفة التي غارت جذورها في بطن الأرض وارتفعت قمتها إلى عنان السماء، وهذا ما شئت أن أقوله انتقاماً للمسيحيين الذين كثيراً ما تنسب إليهم أغلاط اليهود.

دوريون:

إذا كنت وعيت ما قلته يا زينوتميس من أن الرجال الثلاثة الحريين بالإعجاب _يسوع وبازيليد وفالنتان _قد اكتشفوا أسراراً كانت خافية على فيثاغورس وأفلاطون وجميع فلاسفة اليونان، حتى على أبيقور

الإلهي[11] الذي حرر الإنسان من سائر المخاوف الباطلة، فيكون لك الفضل إن أنت أنبأتنا بأية وسيلة أحرز هؤلاء الثلاثة الزائلون المعارف التي غابت عن حكمة الحكماء.

زينوتميس:

وهل أنا بحاجة إلى أن أكرر على مسمعك يا دوريون أن العلم والتأمل ليسا سوى الدرجة الأولى من المعرفة، وأن الانجذاب وحده هو الذي يوصل الإنسان إلى الحقائق الأزلية؟

هيرمودور (Hermodorus):

صحيح يا زينوتميس أن الروح تغتذي بهذا الانجذاب كما يغتذي الجندب بالندى، وزد على ذلك أن العقل وحده هو الصالح لتجلي الجذب، لأن الإنسان يتألف من طبيعة ثلاثية: جسدٍ مادي، وروح أرق منه وإن كانت مادية مثله، ثم عقل غير قابل للفناء. وعندما يصعد العقل من الجسد _الذي يصبح بعده كقصر هجره صاحبه بغتة فصار نهب الصمت والوحشة _ويحلق في جنات الروح، ويندمج في ذات الله... يتذوق العقل لذات موت عتيد، أو بالحري حياة آتية، فما الموت إلا الحياة، وفي هذه الحالة _حالة الاتصال بالذات العلية والاشتراك في الصفاء الإلهي _يفوز العقل بمسرات لا نهاية لها وبمعرفة مطلقة، فيدخل الوحدة التي هي الكل فيكون كاملاً.

نسياس:

هذا حري بالإعجاب، لكن الحق أقول يا هيرمودور إني لا أرى فرقاً كبيراً بين "الكل" و"العدم" حتى الكلمات تبدو عاجزة عن التمييز بينهما، فغير المتناهي يلوح، إلى درجة رائعة، أنه عبارة عن لا شيء،

كلاهما بعيد التصور، ومن رأيي أن الكمال يكلف كثيراً جداً، فقدَ يكلف الإنسان حياته كلها، وعلى المرء لكيما يحظى به أن يتفانى، وهي نكبة لم ينج منها أحد مذ آلى الفلاسفة على أنفسهم تأليه الكمال وتكميل الآلهة، وبعد: فإذا كنا لا نعرف غير الكائن فنحن جاهلون كذلك ما يكون، إنا لا ندري شيئاً... تقولون أن تفاهم الناس فيما بينهم محال، ويبدو لي، على رغم ضوضاء التنازع بيننا، أنه يستحيل عليهم ألا يتفقوا في نهاية الأمر، وقد دفنوا جنباً إلى جنب، مغمورين بأكوام من المتناقضات التي هالوها هم أنفسهم فوق أنفسهم مثل بليون فوق أوسا[١٢].

كوتا:

أحب الفلسفة حباً جماً، وأمارسها في أوقات فراغي، لكنني لا أفهمها جيداً إلا في كتب شيشرون.

يا أيها العبيد صبوا السلافة المعسولة!

كاليكرات (Callicrates):

إن هذا لشيء عجاب! قبلما أذوق الطعام أذكر أيام كان الشعراء يجلسون على موائد الجبابرة الطيبين فيسيل لعابي، لكنني وقد ذقت الرحيق المختوم الذي سكبته لنا بسخاء يا لوسيوس الكريم، لم أحلم بسوى الجهاد المدني، والعراك الحماسي، وإني لأستحيي أن أعيش في زمن كهذا لا مجد فيه، إنني أستوحي الحرية، وأسفك دمي، في الخيال، مع آخر الرومانيين في ساحات فيليب.

كوتا:

مات أجدادي عند سقوط الجمهورية مع بروتس في سبيل الحرية،

ولكن عندي أن ما دعاه الشعب الروماني "حرية" لم يكن في الحقيقة سوى حق حكم نفسه بنفسه، لا أنكر الحية قد تكون خير النعم لأمة، وأجدى ما تناله من العطايا، لكن كلما طال عمري زدت اقتناعاً بأن الحكومة القوية، ذات الحول والطول، هي وحدها التي تستطيع أن تضمنها لرعاياها، لقد قضيت أربعين عاماً شاغلاً مناصب الدولة، ودلتني تجاربي الطويلة على أن وهن القوة الحاكمة ينتج ظلم الرعية، فكل الذين يسعون، مثل السواد الأعظم من الفصحاء، في إضعاف كيان الحكومة، يقترفون جرماً شنيعاً، وقد تتخذ إرادة الحاكم المطلق حيناً مظهراً مشؤوماً، لكن السعي إلى رضا الشعب يجعل الحزم والعزم في الحكم مستحيلاً، وقبل أن يغمر العالم بجلالة السلم الروماني، لم تستعد الشعوب إلا بحكم مستبد مستنير.

هيرمودور:

أما أنا يا لوسيوس فأظن أنه لا يوجد مثال صالح للحكم، ولن يوجد، إذ أن اليونانيين الألباء الذين وفقوا إلى إدراك أشكال صالحة لمختلف الشؤون، حاولوا عبثاً إيجاد الحكومة التي ينشدونها من هذا القبيل، لذلك كان كل أمل من هذه الوجهة خائباً سلفاً، ولقد استدللنا من علامات خاصة على أن الدنيا أشرفت على الغرق في الجهالة والوحشية، وقدر لنا يا لوسيوس أن نشهد احتضار المدنية المروع، ولم يبق لنا من كل الترضيات التي فازت بها الزكانة والعلم والفضيلة إلا الفرح القاسي.. إلا ارتقاب الموت مستسلمين.

كوتا:

حقاً إن جوع البشر وعتو المتوحشين آفتان مخيفتان، غير أنه بأسطول عظيم، وجيش عرمرم، ومال وفير...

هيرمودور:

ما فائدة اغترارنا بأنفسنا؟ إن الامبراطورية المضمحلة سوف تقدم لقمة سائغة للهمج، والمدن التي شاد صروحها الحذق الهيليني والأناة اللاتينية لن تلبث أن تصير نهباً للمتوحشين السكارى، ولن يبقى على وجه الأرض فن ولا حكمة، ستقلب صور الأرباب في المعابد، وتنعكس في القلوب، وسيكون في هذا ظلام العقل وفناء العالم، وكيف نصدق أن "السرماتيين" سيقومون يوماً ما بأعمال نابهة، أو أن "الجرمان" سيزاولون الموسيقى والفلسفة، أو أن "الكاض" و"المركومان" سيعبدون الأرباب الخالدين؟ كلا! لقد مال ميزان كل شيء وتهدم، وهذه مصر العريقة في القدم، التي كانت مهد العالم ستصير لحده، وسيتلقى سيرابيس _آلهة الموت _أسنى تعبدات الأحياء، وسأكون أنا آخر كاهن لآخر إله...

* * *

في تلك اللحظة رفع السجوف الموشاة مخلوق غريب، فرأى الضيوف أمامهم رجلاً ضئيل الجسم، أحدب الظهر، له جمجمة مفلطحة صلعاء، وكان يرتدي جلباباً أزرق على الزي الآسيوي، ويلبس كالهمج سراويل حمراء مرصعة بنجوم ذهبية، فلما رآه بافنونس عرف أنه ماركوس أريوس[13]، فرفع يديه فوق رأسه خشية انقضاض صاعقة من السماء، وامتقع لونه رعباً، ففي وليمة الشياطين هذه لم تستطع تجديفات الوثنيين ولا ترهات الفلاسفة الخاطئين أن تفت في عضده أو توهن من جلده، ولكن أصابه بذلك مجرد حضور هذا الكافر، فحدثته نفسه بالفرار... على أنه عندما التقى نظره ونظر تاييس، اطمأن وسكن روعه، إذ قرأ روح المجتباة وأدرك أنها _وهي توشك أن تصبح قديسة _

قد أسلبت عليه ستر حمايتها، فأمسك بطرف ثوبها الطويل الفضفاض، وناجى المسيح مخلص البشر.

رحب المدعوون بوصول من يدعى "أفلاطون المسيحيين"، وخاطبه هيرمودور أولاً بقوله:

ـ أي ماركوس النابه الذكر! إننا نبتهج جميعاً برؤيتك بيننا، وقد وافيتنا في الوقت المناسب، نحن لا نعلم عن تعاليم المسيحيين إلا ما يرضون بإذاعته وحاشى لفيلسوف مثلك أن يرتأي ما يرتئيه الدهماء، لذلك ترانا متلهفين للوقوف على رأيك في الأسرار الكبرى للعقيدة التي تنتحلها، وقد كان عزيزنا زينوتميس، وهو كما نعلم شغف بتفسير الرموز، يسأل الآن النابه بافنوس عن كتب اليهود غير أن بافنوس لم يحر جواباً. ولا غرو فقد نذر ضيفنا الصمت وختم الله على فمه في الصحراء، أما أنت يا ماركوس، يا من رن صوته في المجامع الأكليروسيه، واعتلى المنابر في مجلس قسطنطين الإلهي، فتستطيع ـ إذا شئت ـأن تنقع غلتنا وتبلغنا أمنيتنا بأن تطلعنا على الحقائق الفلسفية المخبوءة في أساطير المسيحيين، أو ليس أولى هذه الحقائق هي وجود إله واحد لا شريك له، أومن به إيماناً ثابتاً؟

ماركوس (Marcus):

أجل أيها الإخوان الموقرون، إني أؤمن بواحد أحد، لم يولد، فرد صمد، مبدع لجميع الكائنات.

نسياس:

نحن نعلم يا ماركوس أن ربك خلق الدنيا، وكان لهذا الخلق بالتأكيد، شأن يذكر في وجوده، وكان موجوداً منذ الأزل قبل أن تصبح

عزيمته على خلقها، لكن لا بد لي من التسليم _إحقاقاً للحق _بأن موقفه كان حرجاً جداً، فقد كان عليه أن يظل بلا عمل ليظل كاملاً، وكان عليه أن يعمل إذا شاء أن يبرهن لنفسه على وجوده، أراك تؤكد لي أن رأيه كان قد استقر على أن يعمل وأني لواثق بما تقول، وإن كان هذا يعد من قبل إله كامل أغضاء لا يغتفر، والآن خبرنا يا ماركوس كيف شرع في خلق الدنيا؟

ماركوس:

إن الذين أوتوا الحكمة وجوهر المعرفة مثل هيرمودور وزينوتميس، يعلمون، وإن لم يكونوا مسيحيين، أن الله لم يخلق العالم مباشرة وبغير واسطة، فقد اتخذ له ولداً واحداً هو الذي بأمره صنعت جميع الكائنات.

هيرمودور:

صدقت يا ماركوس، وهذا الولد قد عبد بأسماء "هرمس" و"ميترا" و"أدونيس" و"أبولو" و"يسوع".

ماركوس:

لا أكون مسيحياً إذا أطلقت عليه اسماً غير "يسوع" و"المسيح" و"المخلص"، إنه حقاً ابن الله، لكنه ليس بأزلي، إذ أن له بداءة، أما القول بأنه وجد قبلما يولد، فذلك سخف يجب أن يترك لبغال "نيسيه"، وللحمار الحرون الذي حكم كنيسة الاسكندرية زمناً طويلاً باسم اثياسيوس اللعين.

وكان بافنوس قد شحب لسماعه هذا التجديف، وأغرقه الألم في لجة من عرقه، فرسم علامة الصليب ولازم صمته السامي، ومضى ماركوس في حديثه:

ـ من المعلوم أن مجمع "نيسيه" الأكليروسي الغر، قد تهجم على جلاله، عز شأنه، بإرغامه على تقسيم صفاته ـالتي لا تتجزأ بينه وبين الشفيع الذي بواسطته صنعت كافة الموجودات...

يا نسياس كف عن تهكمك بإله المسيحيين الحق! واعلم أن جل شأنه كزنابق الحقل، لا يعمل ولا يغزل، لم يكن هو الصانع بل كان ولده الوحيد يسوع الذي خلق الدنيا، وبعد ذلك أتى سبحانه ليصلح عمله، لأن الخليقة لم تكن كاملة، وكان الشر حتماً قد امتزج فيها بالخير.

نسياس:

ما الخير؟ وما الشر؟

* * *

مرت فترة سكوت، عرض فيها هيرمودور، وذراعاه مسبوطتان فوق غطاء المائدة، أتانا صغيرة من معدن فورنثي تحمل سلين، في أحدهما زيتوناً أخضر وفي الآخر زيتوناً أسود، وقال:

ـ انظروا إلى هذا الزيتون، فإننا نرتاح إلى تخالف لونيه، ويروقنا أن أحدهما أخضر وآخر أسود، لكن لو وهب الفكر والنطق والمعرفة، لقال الأخضر: "خير للزيتون أن يكون أخضر، وبئس الزيتون الأسود، ولكان قوم الزيتون الأسود ينفرون من قوم الزيتون الأخضر، أما نحن فحكمنا أعدل من حكمهم، لأننا فوقهم، بقدر سمو الآلهة فوقنا، فالإنسان يرى جانباً واحداً من كل شيء، فيبصر الشر شراً، والله يحيط بكل شيء علماً، فيرى في الشر خيراً، إن القبح بلا شك قبيح لا جميل، لكن لو كان كل شيء جميلاً، لما ظهر كل شيء جميلاً، والحسن يظهر حسنه الضد...

فلا بأس إذن من أن يكون هناك شر، كالذي أثبته أفلاطون الثاني بما يفوق سميه الأول.

يوكريت:

لنقل قولاً إلى الفضيلة أقرب، الشر شر، لا للعالم الذين لا يخل نظامه المنزه عن الاضطراب، وإنما هو شر بالنسبة للشرير الذي يقترفه، وكأن بوسعه أن يجتنبه.

كوتا:

وحق جوبيتير! أن هذا عين الصواب!

بوكريت:

العالم مأساة شاعر مجيد، والله الذي ألفها قد جعل لكل منا دوراً يمثله فيها، فإذا شاء أن تكون سائلاً أو أميراً أو أعرج، فابذل أقصى جهدك في إجادة تمثيل دورك!

نسياس:

أجل!.. ويجمل بأعرج المأساة أن يعرج مثل "هيفستوس" وبالمجنون أن يستسلم لهياج "أجاكس"، وبالزانية بمحرم تجدد جرائم فيدروس، وبالغادر أن يخون، وبالخادع أن يكذب، وبالقاتل أن يذبح، وعندما يتم تمثيل الرواية فكل الممثلين _الملوك والعدول، والطغاة السفاكين، والعذارى الطاهرات، والزوجات الفاسقات، والقتلة الأنذال، وأهل البلاد ذوي الهمم الشماء _هؤلاء كلهم ينالون أنصبة متساوية من الثناء!

يوكريت:

إنك تشوش فكري يا نسياس، وتحول الغادة الحسناء إلى غول بشع! إنني أرثي لجهلك بطبيعة الآلهة، والعدل السماوي والشرائع الأزلية.

زينوتميس:

أما أنا يا صحب فأؤمن بحقيقة الخير والشر، لكنني أيقنت أنه ما من عمل بشري، حتى قبلة يهوذا، إلا وفيه بذرة الفداء، الشر عون على نجاة الناس نجاة نهائية، وفي هذا يصدر عن الخير وله نصيبه في الجزاء المتعلق بالخير، وهو ما بينه المسيحيون تبييناً شائقاً في أسطورة الرجل ذي الشعر الأحمر الذي لكي يخدع مولاه منحه قبلة السلام وأكد فعله خلاص الناس، كذلك ما من شيء، في رأيي، أشد تناهياً في الشطط من الضغينة التي بها طارد بعض أتباع "بولس الخيام" أتعس حواريي المسيح، وفاتهم أن قبلة "الأسخريوطي" التي تنبأ بها المسيح نفسه، كانت ضرورية بحسب عقيدتهم، لفداء البشر، وأنه لو لم يقبل يهوذا السفط ذا الثلاثين من الفضة، لكانت الحكمة الإلهية فرية، فتضلل الذات العلية، وتنعكس أغراضها، وتسلم الدنيا للشر والجهل والفناء...

ماركوس:

سبق في علم الحكمة الإلهية أن يهوذا كان مخيراً في ألا يسلم سيده، ومع ذلك سلمه، وهكذا استخدمت جريمة الاسخريوطي كحجر في بناء صرح الفداء العجيب.

زينوتميس:

كلمتك الآن يا ماركوس كمن يصدق أن نجاة الناس تمت على يد المسيح المصلوب، لعلمي أن هذا هو اعتقاد المسيحيين، وقد أدركت ما يجول بخواطرهم ليكون في تمام وسعي أن اكتشف عن خطأ أولئك الذين يعتقدون هلاك يهوذا الأبدي، وأرى أن يسوع هو في الحقيقة البشير ببازيليد وفالنتان، أما من جهة سر الفداء، فسأخبركم أيها الأصدقاء

الأعـزاء، مع قلة شـوقكم إلى السـمـاع، كـيف تم _في الواقع _على الأرض.

فأشار المدعوون بالقبول:

وعندئذ دخل القاعة اثنتا عشرة فتاة، سريعات الخطا، على ألحان ناي خفي، يحملن على رؤوسهن سلال الرمان والتفاح، مثل العذارى الأثينيات بسلال الحصيد المقدسة، فوضعن السلال فوق المائدة، وانقطعت أنغام الناي، وقال زينوتميس:

_ لما خلقت "أيونيا" أي "فكرة الله" العالم، عهدت بحكومة الأرض إلى الملائكة، لكنهم لم يحتفظوا بالرزانة اللائقة بالحكام، فإنهم لما رأوا بنات الناس فاتنات، باغتوهن في المساء عند عيون المياه، واجتمعوا بهن، فتولد جنس شرس ملأ الأرض بغياً وعتواً، حتى ارتوت أتربة الطرقات من دماء الأبرياء، ولما رأت "أيونيا" هذا، نالها حزن لا يوصف، فاتجهت إلى الدنيا، وتنهدت قائلة:

_ هذا ما قدمت يداي! إن أطفالي المساكين غارقون في حياة مريرة، والذنب ذنبي، إنهم يتوجعون بجريمتي وأريد أن أكفر عنها، الله نفسه، الذي لا يفكر إلا بواسطتي، لا يستطيع أن يرد إليهم طهارتهم الأولى، سبق السيف العذل، وسوف تبقى الخليقة، ناقصة حتى الأبد، وأقل ما أستطيعه ألا أتخلى عن مخلوقاتي، فإذا لم أستطع إسعادهم مثلي، فإنني أقدر على مقاسمتهم شقاءهم، وبما أنني أخطأت إذ وهبت لهم أجساداً تذلهم فلأتخذن أنا الأخرى جسداً كأجسادهم، وأذهب لأعيش بينهم"

ثم هبطت إلى الأرض واتصلت برحم امرأة أرجوسية حيث تكونت ثم ولدت صغيرة نحيلة، وسميت "هيلانة"، وسخرت في أعمال الحياة، بيد

أنها ما عتمت أن ترعرعت في حسن وجمال وصارت أعز من يشتهى من النساء، وكانت قد اعتزمت أن تمتحن جسمانها الفاني بأدنى الخطايا، فبذلت نفسها للزناة الشرسين كفارة عن كل فسق وشراسة ومظلمة، وسببت بجمالها دمار الشعوب حتى يعفو الله عن جرائم الكون، ولن تكون "أبونيا" قط، أو بالحري الفكرة السماوية، مستحقة العبادة كما كانت في تلك الأيام التي أباحت، كامرأة، عرضها للأبطال والرعاة.

تخيل الشعراء ألوهيتها حين وصفوها بالهدوء والسمو والفتك، وعندما وجهوا الدعاة لها، قائلين أنها: "روح صافية صفاء البحار" كذا دفعت الشفقة "أيونيا" إلى الشر والعذاب، ماتت ولا يزال الجنس الأرجوسي ينتجع قبرها، كان عليها أن تعرف الموت بعد اللذة، وأن تذوق الثمار المرة التي بذرت بذورها، لكن بتخلصها من جسد هيلانة المنحل تجسمت في شكل امرأة أخرى وانقادت ثانية إلى كل فاحشة، وهكذا بانتقالها من جسد إلى جسد، واجتيازها مراحل الشر بيننا، تحمل أوزار الدنيا، ولن تذهب تضحيتها أدراج الرياح، فلاتصالها بنا برابطة اللحم والدم، ومحبتها لنا ومشاركتنا في ذرف الدموع.. ستحصل على نجاتنا ونجاتها معاً، وسترفعنا، معلقين بصدرها الأبيض الناصع، إلى سلام الفردوس المردود.

هيرمودور:

هذه الأسطورة ليست مجهولة مني، فإني أذكر ما قيل عن هيلانة الشائقة أنها عاشت في إحدى تقمصاتها مع "سيمون" الساحر في أيام الامبراطور، "تيبروس"، على أنني أظن أن سقوطها كان على رغمها، وأن الملائكة طوحوا بها معهم.

زينوتميس:

كذا يظن الذين لم يقفوا على حقائق الأمور يا هيرمودور، فعندهم

أن "ايونيا" الحزينة سقطت مضطرة غير مختارة لكن إذا كان الأمر كما يزعمون فإن إيونيا لن تكون السرية المكفرة، والنذر المغمور بكل مسبة، والخبز المنقوع في خمر عارنا، والقربان المحبب، والضحية المثابة، والمحرقة التي يتصاعد دخانها إلى الله... إذا لم تكن خطاياها برضاها فلا خير فيها ولا فضل لها.

كاليكرات:

لكن، هل يعلم أحد يا زينوتاييس، بأي أرض، وبأي اسم، في أي شكل فنان، تعيش اليوم هذه "الهيلانة" التي تتجدد ولادتها على الدوام؟

زينوتميس:

لكيما يستطيع المرء أن يكشف عن هذا السر، يجب أن يكون قد أوتي الحكمة، والحكمة، يا كاليكرات، لم تؤت الشعراء الذين يعيشون في عالم كثيف من الأشكال والأشباح، والذين يتلهون بالأصوات والصور الوهمية كالأطفال.

كاليكرات:

حذار أن تسيء إلى الآلهة يا زينوتميس الزنديق، فالشعراء أعزة لديهم، وقد سنت الشرائع الأولى نظماً، ومعجزات الأرباب قصائد، والآذان السماوية تستطيب وقع الأناشيد! ومن ذا الذي يجهل أن الشعراء مطلعون على الغيب فلا تخفى عليهم خافية؟.. وإذا كنت شاعراً وقد توجت بإكليل من غار "أبولو" فسأطلعكم على آخر جسد لأيونيا، إن هيلانة الأزلية على مقربة منكم، إنها تنظر إلينا ونحن ننظر إليها... انظروا إلى تلك المرأة المتكئة على مساند فراشها، بالغة حد

الجمال، غارقة في بحر الأحلام، وقد اغرورقت عيناها بالدموع، وتحركت شفتاها بالقبل... إنها هي!.. فتانة كما كانت في عهد بريام وأيام آسيا الزاهرة، إن أيونيا اليوم تدعى تاييس!..

فيلينا (Philinna):

ماذا تقول يا كاليكرات؟ أترى عزيزتنا تاييس قد عرفت باريس ومنالاس وأهل "مورة" المشهورين بجمال أربطة الساق الذين أربوا حيال "اليون"؟ وهل كان حصان طروادة عالياً يا تاييس؟

أريستوبول (Aristobalus):

من يذكر الخيل؟..

فصاح شيراس:

_ لقد شربت حتى ارتويت!..

ثم هوى ساقطاً تحت المائدة...

فرفع كاليكرات كأسه قائلاً:

_ إذا شربنا شرب اليائسين، متنا موتورين!..

ونام كوتا الشيخ ملقياً رأسه الأصلع على كتفيه العريضتين، ومرت فترة من الزمن، ودوريون يبدو كأنه يموج في معطفه الفلسفي، ثم اقترب من متكأ تاييس وقال:

_أحبك يا تاييس، وإن كان حب المرأة لا يليق بي!

تاييس:

ولماذا لم تحبني منذ هنيهة؟

دوريون:

لأني لم أكن ذقت طعاماً!

تاييس:

أمـا أنا يا صـاحـبي المسكين، لـم أشـرب سـوى الماء القـراح، فـلا أحبك!..

فـاكتـفى دوريون بما سـمعـه، وانسل إلى جانب دروسيـه التي أومأت إليـه بعينها لتستـأثر به دون صاحبـتـها، فـاحتل زينوتميس المكان الخالي وقبل تاييس في ثغرها.

تاييس:

كنت أحسبك أعف من أن تأتي بمثل هذا...

زينوتميس:

إنني كامل، والكاملون لا يقيدهم قانون!

تاييس:

أفلا تخشى أن تتدنس إذا ألقيت بنفسك في حضن امرأة؟!...

زينوتميس:

للجسد أن يستسلم للشهوات، وتبقى النفس طاهرة غير شاعرة!

تاييس:

بعـداً لك! إني أريد أن أحب بـالجـسـد والنفس مـعـاً، كل هؤلاء الفلاسفة تيوس!

***

انطفأت المصابيح واحداً أثر واحد، ونفذت أشعة الفجر الشاحبة من خلال السجوف فأضاءت وجوه المدعوين القائمة وعيونهم المنتفخة، وكان أريسـتوبول، الذي سقط بجانب شيـراس، مطبق اليـدين يرسل في حلمه سـواسـه إلى الغـربان!.. وقـد ضم زينوتميس في حـضنه فـيلنا المنهـوكـة

القوي، وصب دوريون فوق حلقوم دروسيه العاري قطرات خمر ترقرقت كاليواقيت وتدحرجت على صدرها الأبيض الرجراج، من فرض الضحك، وقد تعقب الفيلسوف تلك القطرات بشفتيه يشربها من فوق لحم الصدر الغض...

نهض بوكريت ووضع يده على كتف نسياس واجتذبه إلى أقصى القاعة، وقال له متبسماً:

_ إذا كان لا يزال في طاقتك يا صديق أن تفكر، ففيم تفكر؟..

_ أفكر في أن عشق النساء هو حدائق أدونيس!

_ ماذا تعني؟

_ أو لم يجر في علمك يا بوكريت أن النساء في كل عام يشيدن حدائق صغيرة في شرفات منازلهن، فيغرسن نخيلاً في أصص تكريماً لعاشق الزهرة؟ فهذه النخيل تنضر وتخضر قليلاً ثم تذوي وتذبل..

_ وأي قيمة لهذا يا نسياس؟ فمن الحماقة أن يتعلق المرء بظل لا شك زائل.

_ إذا كان الجمال ليس سوى ظل، فليس الاشتهاء إلا وميض برق، ويا ليت شعري أية حماقة في اشتهاء الجمال؟ من رأيي أن ما يزول ينبغي أن يصحب ما لا يدوم، وإن الوميض الحائل يبتلع الظل الزائل...

_ إنك تبدو لي يا نسياس طفلاً لاعباً بالاكر! ألا فتحرر تكن رجلاً!..

_ كيف يمكن لإنسان أن يتحرر يا بوكريت وله جسد؟..

_ سترى حالاً يا ولدي، وتقول: "لقد كان بوكريت حراً"

وكان الشيخ يستند أثناء كلامه إلى عمود من رخام سماقي، وقد

أضاء جبينه بأشعة الفجر الأولى، فاقترب هيرمودور وماركوس ووقفا بجانب نسياس وأخذ الأربعة يتحدثون في الإلهيات غير مكترثين لضحك السكارى وصياحهم، فأعرب يوكريت عن حكمة، وأبان عن فصاحة، جعلت ماركوس يقول له:

ـ إنك خليق بأن تعرف الله الحق.

فأجاب يوكريت:

ـ إن الله الحق في قلب كل حكيم.

ثم تكلموا في الموت..

قال يوكريت:

ـ أريد أن يجدني الموت مشغولاً بتقويم اعوجاجي وتأدية واجباتي فأرفع يدي الظاهرتين أمامه نحو السماء وأقول للآلهة: "أيتها الآلهة، لم أدنس قط صورك التي وضعتها في هيكل روحي، هناك علقت أفكاري كالأكاليل والتيجان، لقد عشت ممتثلاً لذاتك العلية، وقد عشت حتى اكتفيت".

قال هذا ورفع ذراعيه إلى السماء فأضاء وجهه بنور ساطع. ولبث هنيهة مفكراً، ثم عاد يقول مسروراً:

_انتزع ذاتك من الحياة يا يوكريت، كما تسقط الزيتونة الناضجة من الشجرة التي حملتها، فتحمدها وتحمد الأرض التي غذتها.

ثم أخرج من ثنيات ثوبه خنجراً مسلولاً وأغمده في صدره... ولما أمسك سامعوه بيده، كان النصل قد اخترق صدر الرجل الحكيم، فحمل هيرمودور ونسياس الجسد المصفر المخضب بالدماء إلى مضجع بين ولولة النساء المذعورات، وتأفف الأضياف المنزعجين من رقادهم، وتأوهات

الشهوات المكتمة التي ركدت ريحها وخبت نارها، أما الشيخ كوتا فقد استيقظ من نومه العسكري الخفيف ودنا من الجثة يفحص الجرح ويصيح:

ـ علي بطبيبي أريستيه!

فهز نسياس رأسه وقال:

ـ لقد مضى يوكريت، إنه اشتهى الموت كما يشتهي غيره الحب، وقد أذعن، مثلنا جميعاً، لأمنية مبهمة، وهاهو الآن مثل الآلهة الذين لا يتمنون ولا يشتهون شيئاً...

فقرع كوتا جبهته وقال:

ـ الموت! يشتهي الموت وهو لا يزال قادراً على خدمة الدولة؟ يا للخبال!..

وكان بافنوس وتاييس قد لبثا جالسين جنباً إلى جنب بغير حراك، وقد فاضت نفساهما بالاشمئزاز والرعب، والأمل...

ثم أمسك الراهب فجأة بيد الممثلة، وتخطى معها السكارى المصروعين على مقربة من المتعانقين والمتضاجعين، واجتذبها مجتازاً بها الشراب المسكوب والدم المسفوك...

الهوامش:

١ _البانثيون pantheon

٢ _في أساطير الأولين أن كاستر castor هو ابن جوبتير وليدا ، والأخ التوأم لبولكس pollux . وضرب المثل بعروتهما الوثقى التي لا انفصام لها . وهذان الاسمان يذكران عادة في معرض الوداد ، رمزاً للمحبة والقبول . "المترجم" .

٣ _هذه الجملة من أقوال الفيلسوف الرواقي (Epietete) ليبكتيتوس (أي العبد الأسير) الذي ولد في الجيل الأول للميلاد بمدينة هيرأبوليس بمصر . وأتى روما في عهد نيرون تابعاً لأبافروديت (Epaphrodite) أحد رجال الطاغية الروماني ، فعرف بهذا الاسم . وخلاصة آرائه احتقار المادة ، ونصرة الفضيلة ، وحب البشرية ، وتمجيد الله . وأن العلم بغير العمل لا قيمة له ، وأنه لا بد مما ليس منه بد . وله في ذلك كلمة مشهورة "احتمل وامتنع" . ومما يروى عنه أن سيده القاسي لوى يوماً ساقه في أداة تعذيب ، فقال له أبيكتيتوس بهدوء : "ستكسرها!" فلما صدق حدسه ، وكسرت رجله ، سر بأن ختم جملته بقوله : "ألم أقل لك ذلك" .

٤ _ Marc - Aurele عاهل الدولة الرومانية (١٦١ - ١٨٠ ق .م) وخير امبراطوريتها . ورب من أرباب السيف والقلم . عرف بحكمته الرواقية الخالصة واعتداله المشهور وادبه الموفور . ضمن كتابه الخالد "أفكار" زبدة آرائه السامية التي تعد القواعد الأدبية لفلسفة الرواقيين .

٥ _ Zenon هو الفيلسوف اليوناني المشهور ولد في سيتيوم بجزيرة قبرص وأسس المذهب الرواقي Stoicisme الذي يرى في العقل الإلهي المنظم الأعظم لجميع الكائنات ، وأن سعادة الإنسان في العمل وإجهاد النفس . وقد أسس مدرسته في أثينا برواق باسيل ، فأطلق عليه وعلى تلاميذه "الرواقيون" وكان على مذهب أبي العلاء ، طيب الله ثراه ، يرى أنها : "تعب كلها الحياة" ، ولذلك لما أحس بالشيخوخة تدب في جسده ، وضع حداً لحياته بالانتحار _ ٢٣٩ ق .م "المترجم"

٦ _الهلوف : الخنزير البري .

٧_ Iaveh_ (Jehovah يهوه - الكائن الاسمى) .

٨ _athene Pallas هي آلهة الحكمة عند الإغريق .

٩ _اله الشر والجدب والظلام عند قدماء المصريين .

١٠ _اله الشعر والفنون عند اليونان والرومان .

١١ _ Epicure فيلسوف اليونان العظيم (٣٤٢-٢٧١ ق .م) يحتمل أنه ولد في ساموس . يرى

في اللذة الخير كله ، وإنه يجب أن تتوجه كل مجهوداتنا في سبيل الحصول عليها . لكنها يفرقها عن الحواس . ويرى في لذة الجسد العذاب والألم . ويقول بلذة العقل وتثقيفه وممارسة الفضيلة . ويرى في ذلك السعادة وهي غاية الحياة . لكن مذهبه تحدر وتدهور من بعد ذلك إلى عكس أغراضه العالية النبيلة ككل مذهب من المذاهب السامية التي يقضي عليها ضعف الإنسان "_المترجم" .

١٢ _في أساطير الأولين أن Pelion وأوسا Ossa جبلان متجاوران في تساليا . فلما ثار الجبابرة على الإله جوبيتر ، وأرادوا أن يرقوا أسباب السماء ، كوموا بليون فوق أوسا فضربت مثلاً للمشكلات إذا زادت لغير نتيجة ، والصعوبات إذا قامت ضغثاً على إبالة "المترجم" .

١٣ _ Arius كاهن اسكندري (٢٨٠-٣٣٦) مؤسس المذهب الأريوسي الهرطوقي "الناشر"



البردي

عود على بدء

طلع الصبح بلون الورد على المدينة، وامتدت صفوف الأعمدة الطويلة على جانبي الطريق المقفر، وقد أشرفت عليه من بعيد قبة قبر الاسكندر المتلألئة، وكان على جانبي الطريق أكاليل زهر سقطت أوراقها، ومشاعل انطفأ نورها، مبعثرة هنا وهناك، وكان الهواء مرطباً بنسمات البحر العليلة، فمزق بافنوس ثوبه الفاخر مشمئزاً وداس عروضه بقدميه، وصاح قائلاً:

_ ها قد سمعتم يا تاييس، فقد نفثوا صنوف الحماقات والخبائث، وقذفوا بفاطر السموات والأرض من أعلى سمائه إلى أسفل درك الجحيم حيث الشياطين، وأنكروا بوقاحة وجود الخير والشر، وجدفوا على السيد المسيح وكفروا به، وأثنوا على يهوذا، الأريوسي النتن المحشو بالفساد والهلاك، فقد فتح فاه كما تنبش القبور... أي تاييس! لقد رأيت تلك القوقعات النجسة تزحف إليك وتدنسك بعرقها اللزج، وأبصرت أولئك الوحوش نائمين تحت أقدام العبيد، وشاهدت أولئك البهائم متضاجعين فوق الطنافس المدنسة بقيئهم، لقد رأيت ذلك الشيخ المجنون يهرق دماً أنجس من الخمر المسكوبة في مجلس دعارتهم، ويلقي بنفسه بعد الفراغ

من التهتك والخلاعة في وجه المسيح غير المنتظر!.. الحمد لله!.. لقد رأيت الخطيئة وعرفت أنها مرذولة وساءت سبيلاً، تاييس! تاييس! تاييس! اذكري جهالة أولئك الفلاسفة، وقولي: هل ترغبين في الهذيان مثلهم؟ اذكري النظرات والحركات والقهقهات التي عاينتها من رفيقتيهم الخليقتين بهم.. تانك القردتان البهيميتان الخبيثتان، وقولي: أتودين أن تبقي مثلهما؟ أما تاييس التي أحفظت قلبها مكاره تلك الليلة، وشعرت بتفاهة الرجال وبهيميتهم، وخباثة النساء، وثقل وطأة الأيام... فإنها قالت متنهدة:

ـ نفسي متعبة حتى الموت يا أبي، فأين الراحة؟ أحس بجبيني ملتهباً، ورأسي خاوياً، وذراعي مرتخيتين حتى لا أملك من القوة ما يكفيني لإمساك السعادة ولو أنها وضعت في راحتي.

فنظر إليها بافنوس بحنو وقال:

ـ تشجعي يا أختاه! فقد اقتربت الساعة التي ترتاحين إليها، أنت التي ستصير بيضاء نقية مثل هذه الأبخرة التي ترينها صاعدة من الحدائق والبحيرات.

***

اقتربا من بيت تاييس، وشاهدا فوق الجدران رؤوس أشجار الجميز والجلنار، المحيطة بكهف العذارى، تهتز تحت ظل نسمات الصباح... وكانت أمامهما رحبة خالية محاطة بالعمد والتماثيل المنذورة، وفي أطرافها مقاعد مستديرة من الرخام عليها أنصاب مختلفة الأشكال، فسقطت تاييس على أحد هذه المقاعد، ثم رشقت الراهب بنظرة تلهف، وتساءلت:

_ ماذا ينبغي أن أعمل؟

فأجاب الراهب:

ينبغي أن تتبعي ذاك الذي أتى للبحث عنك، إنه سيفصلك عن هذه الحياة كما يفصل القاطف عنقود العنف الذي يتعفن في الكرم ويأخذه إلى معصرة الخمر ليحوله إلى صهباء طيبة النكهة معطرة، اسمعي! إن علي مسيرة اثنتي عشرة ساعة من الاسكندرية، إلى الجهة الغربية، بقرب البحر، دير الراهبات، تعاليمه آيات حكمة بينات جديرة بأن تكتب شعراً غنائياً، وتوقع على ألحان الدف والطنبور.. والحق أن النساء اللاتي فيه باتباعهن تلك التعاليم وأقدامهن على الأرض، أصبحت جباههن في السماء!.. وهن يحيين في هذا العالم حياة الملائكة، يردن أن يكن فقيرات ليحبهن يسوع، خفرات كي ينظر إليهن، فاتنات ليتزوجهن... يزورهن يومياً في ثوب بستاني حافي القدمين، ويداه الجميلتان مفتوحتان مثلما أظهر نفسه لمريم في طريق الضريح، وعلى ذلك سآخذك اليوم إلى هذا الدير يا تاييس، ولا تلبثين بعد انضمامك إلى أولاء الراهبات القديسات أن تشتركي في سمرهن السماوي، إنهن ينتظرنك كأخت لهن، وعند عتبة الدير أمهن "ألبين" النقية تمنحك قبلة السلام، وتقول لك: "أهلاً وسهلاً بك يا ابنتي!"

فصاحت الغانية صيحة الدهشة وقالت:

_ ألبين! ابنة القياصرة! ابنة أخت الامبراطور كاروس!

_ هي بعينها! ألبين الشريفة المحتد قد ارتدت بعد الأرجوان الروماني أشعاراً بالية وسمت بنت سادة الدنيا إلى منزلة خادم يسوع المسيح، ستكون أمك.

فنهضت تاييس وقالت:

ـ خذني إلى بيت ألبين!

فقال بافنوس متمماً نصره المبين:

ـ سأسير بك حتماً إليه، وسأقفل عليك في صومعة حيث تبكين على آثامك وما قدمت يداك، إذ ليس من الرأي الصواب أن تختلطي ببنات ألبين قبلما تغتسلي من جميع خطاياك، وسأضع على الباب ختماً، وستمكثين سجينة سعيدة حتى يأتي يسوع بنفسه ويكسر الخاتم علامة الغفران، بالله لا يداخلك ريب يا تاييس في مجيئه، فسيأتي، ويا للرعشة التي سوف تسري في جسمك حين تشعرين بأصابع نوره فوق عينيك ترقأ دموعك!

فقالت تاييس ثانية:

ـ خذني يا أبي إلى بيت ألبين!

امتلأ قلب بافنوس فرحاً، فنظر حوله وذاق ـغالباً بغير خوف ـلذة التأمل في المخلوقات، ونهلت عيناه من نور الله بابتهاج، ومرت فوق جبينه نسمات مجهولة.. ثم أبصر فجأة في إحدى زوايا الميدان الباب الصغير المؤدي إلى بيت تاييس، وتذكر أن تلك الأشجار البديعة التي كان يعجب بأعاليها قد ظللت حدائق العاهرة، ورأى بعين الفكر الأرجاس التي لوثت الهواء الذي كان في ذلك اليوم منعشاً ونقياً، فأمضه ذلك وأشجاه، وعال من صبره وشجاه، فأجهش بالبكاء وقال:

ـ سنولي الأدبار يا تاييس، لا نلوي على شيء، لكن لن نترك وراءنا الأدوات، الشهود، الشركاء في جرائمك الماضية، تلك السجوف والأسرة والبسط وقوارير الطيب والمصابيح التي تعلن عن فجورك،

أتريدين متاع الجريمة هذا المسكون بالشياطين والذي يحمله الروح اللعين المستقر فيه.. أن يتبعك أيضاً في البادية؟.. والحق الذي لا ريب فيه، أن موائد العار ومقاعد الشنار تستخدم كأعوان للشياطين، فهي تعمل وتتكلم وتخبط في الأرض وتخترق الجو! فليكن العدم والفناء نصيب شهود عارك! ألا فاسرعي يا تاييس ومري، والمدينة هاجعة، عبيدك أن يقيموا في وسط هذا الميدان كومة من الخشب تحرق فوقها الثروة المدنسة التي يحتوي عليها مسكنك.

فارتضت تاييس ذلك وقالت:

_ افعل يا أبي ما تريد، لست أجهل أن المتاع اللاروح فيها يصلح مساكن للأرواح!.. في الليل، يتكلم بعض الأثاث سواء بضربات يحدثها في فترات معينة، أو بإظهار أضواء ضئيلة كإشارات، ولكن هذا كله ليس بذي بال، فثمة ما هو أدهى وأمر، أفلم تلحظ يا أبي إلى يمين مدخل "كهف العذارى" تمثال امرأة عارية كأنها تتأهب للاستحمام؟ رأيت بعيني رأسي هذا التمثال وقد التفت ذات يوم كأنه إنسان حي، ثم استعاد مظهره العادي، فتثلجت أطرافي رعباً، وضحك مني نسياس لما أخبرته بهذه الأعجوبة، فلا بد وأن يكون هذا التمثال بعض السحر، فقد حدث أنه نفث مآرب مضنية في رجل دلماسي كان كافراً بجمالي، حقاً لقد كنت في وسط أشياء ساحرة، وكنت معرضة لأشد الأخطار برؤية الرجال وقد خنقهم عناق تمثال البرونز هذا! ومع ذلك فمن دواعي الأسف أن نعدم النفائس المصنوعة بمهارة نادرة، وإذا جعلت بسطي وسجوفي طعمة للنيران كانت الخسارة لا تعوض، وإن جمال لون بعضها لباهر حقيقة، وقد أنفق عليها الذين وهبونيها أموالاً لا يستهان بها، وكذلك

أملك أقداحاً وتماثيل وصوراً ثمينة، ولا أظن أن إتلافها ضروري، لكنك يا أبي تعلم ما يجب عمله، فاعمل ما تريد.

ثم تبعت الراهب إلى الباب الصغير حيث علقت أكاليل الزهر والتيجان الكثيرة، ولما فتح أمرت البواب أن يدعو عبيد البيت جميعاً، فظهر أولاً أربعة هنود طهاة، وكانوا عوراً صفر البشرة، وقد كابدت تاييس مشقة عظيمة ووجدت لذة كبيرة في جمعهم من جنس واحد، ومصابين بعاهة واحدة، وكانوا عندما يخدمون على المائدة يثيرون فضول المدعوين فتأمرهم تاييس بقص تاريخ حياتهم، فاقترب هؤلاء وظلوا صامتين، ثم تبعهم مساعدوهم، ثم أقبل السواس والصائدون وحملة المحفة والسعاة الذين لا يضنيهم التعب وبستانيان غزيرا الشعر، وستة زنوج ذو هيئة وحشية، وثلاثة مماليك يونانيين أحدهم نحوي والثاني شاعر والثالث مغن، اصطفوا جميعاً بانتظام في الرحبة، وأقبلت الزنجيات الفضوليات، منزعجات، يدرن عيونهن الكبيرة، وأشداقهن منشقة حتى أقراطهن، ثم ظهر ست جوار بيض جميلات، عابسات، متنقبات، يجررن ببطء أقدامهم المكبلة بسلاسل ذهبية دقيقة.

ولما تكامل عددهم، قالت تاييس لهم، وهي تشير إلى بافنوس:

ـ افعلوا ما يأمركم به هذا الرجل، فقد حلت به روح الرب، فإذا خالفتموه أدرككم الموت.

ذلك أنها كانت قد سمعت أن لأولياء الصحراء من البأس ما يغرق الخاطئين الذين يضربونهم بعصيهم في جوف الأرض المنشق الملتهب فآمنت بما سمعت!

صرف بافنوس النساء، والمماليك اليونانيين الذين كانوا كالنساء، وقال للباقين:

ـ ايتوا بخشب في وسط الرحبة، وأوقدوا ناراً، وألقوا فيها ما دار عليه البيت والكهف.

فوقفوا بلا حراك مشدوهين، وسألوا مولاتهم بأعينهم، فلما رأوها لا تأتي بحركة، ولا تنبس ببنت شفة، تزاحموا بالمناكب، وقد داخلتهم الشكوك فيما يراد بذلك، وحسبوه دعابة...

قال الراهب:

ـ أطيعوا!

كان منهم مسيحيون عديدون فقهوا ما طلب إليهم، وراحوا يبحثون في البيت عن خشب ومشاعل، وتبعهم الباقون بغير استياء لأنهم لفقرهم يبغضون الثراء، وفي غريزتهم حب التدمير، وبينما كانوا يكدسون الخشب، قال بافنوس مخاطباً تاييس:

ـ خطر لي أن استدعي خازن إحدى كنائس الاسكندرية، إذا كان فيها ما يصح أن يسمى كنيسة ولم يدنسه الأريوسيون الوحوش" لأعطيه متاعك أيتها المرأة ليوزعه على الأرامل والمساكين، وبذلك يستحيل ربح الجريمة إلى كنز العدالة، لكن هذا الخاطر لم يأت من عند الله، لذلك نبذته نبذ النواة، فلا شك أن إعطاء أسلاب الترف والرفاهية إلى أحباء المسيح يكون إساءة بالغة.

أي تاييس!

يجب أن يذهب كل ما لمسته يداك طعمة للنيران حتى يصير هشيماً تذروه الرياح، حمداً لك يا سماء، فإن هذه الشفوف وهذه النقب التي تلقت من القبل ما لا عدد له، كأمواج البحر الزاخر، لن تحس الآن إلا شفاه اللهيب وألسنته! عجلوا أيها الأرقاء! هاتوا أيضاً خشباً ومشاعل!

وأنت يا امرأة، ادخلي البيت وانزعي حلتك الفاضحة، والتمسي من أحقر جواريك أن تمن عليك بأرث قميص لها تلبسه وهي تمسح البلاط...

فأطاعت تاييس...

وبينما كان الهنود راكعين ينفخون في الجذوة المتقدة، قذف الزنوج على النار صناديق العاج والأبنوس والأرز وهي مفتوحة فسقطت منها التيجان وأكاليل الزهر والقلائد، وارتفع عمود أسود من الدخان مثلما في محرقات الشرائع القديمة، ثم إن النار التي حصرت في صعيد واحد، اندلعت فجأة وزأرت كحيوان مفترس، وأخذ لهيبها الذي يكاد لا يرى من شدة تكاثف الدخان، يلتهم وقودها الثمين، فازدادت حمية العبيد في عملهم، ونشطوا لجر البسط الغالية، والبراقع المطرزة بالفضة، والديباج المزخرف وقد أثقل كواهلهم حمل المناضد والأرائك والوسائد السميكة والأسرة ذات العمد الذهبية، وجرى ثلاثة أحباش أقوياء حاملين في أحضانهم تماثيل الكهف الملونة التي كان أحدها محبوباً كأنه من الأحياء، فما كان أشبههم بالقردة الكبيرة خاطفة النساء! ولما سقطت هذه الدمى الجميلة المتجردة من أذرع حامليها وتكسرت فوق الأحجار، سمع لها صدى زفير وتنهد...

وحينئذ ظهرت تاييس، وشعرها مرسل على كتفيها، حافية، ترتدي قميصاً خشناً لا هندام له، ولعله صار بلمسه بدنها مشرباً بنعمة الله...

وجاء وراءها بستاني يحمل تمثال "أيروس"[1] صغير الحجم. مصنوعاً من العاج، مخبوءاً في لحيته المتدلية، فأشارت تاييس إلى الرجل بالوقوف، واقتربت من بافنوس وأرته التمثال الصغير، وسألته:

_ أسمحتم يا أبي إلقاء هذا أيضاً في النار؟ إنه من الآثار القديمة

العجيبة، وهو يساوي مائة مرة وزنه ذهباً، ولن يعوض فقده، لأنه لن يوجد في العالم فنان قادر على صنع مثله، ولا تنس يا أبت أن هذا الطفل الصغير رمز "الحب"، ومن الواجب ألا يعامل بقسوة، صدقني يا أبت أن الحب فضيلة، وإذا كنت أنا قد أذنبت، فليس منه، وإنما إليه، لن أندم أبداً على ما جعلني الحب أعمله، وإني لآسفة جد الأسف على ما اقترفته برغم منه، أما تراه وهو يأبى على النساء أن يهبن أنفسهن للذين لا يتقدمون باسمه؟ إنه خليق بكل إجلال وإكبار، انظر يا بافنوس إلى هذه "الأيروس" الصغير ما أبدعه؟ لقد لجأ برقة وخفر إلى لحية البستاني مختبئاً، أهداه إلي نسياس يوماً، وهو يحبني، قائلاً: "سوف يحدثك عني" لكن إله الحب الماكر حدثني عن شاب كنت قد عرفته في إنطاكية، ولم يذكر لي نسياس أبداً.. أو لم يكف يا أبي ما هلك في هذا المحرقة؟.. ابق على هذا "الأيروس"، وضعه في معبد، فيتوجه الذين يرونه إلى الله بقلوبهم، لأن "الحب" طبعاً يعرف كيف يسمو بتلك القلوب إلى الأفكار العلوية..

وكان البستاني، وقد جرى في ظنه أن الأيروس نجا، يبتسم له كأنه الطفل الرضيع، فاختطفه بافنوس من الذراعين اللتين تحملانه ورمى به إلى اللهب صارخاً:

ـ يكفي أن يكون نسياس قد لمسه، ليفيض بكل أنواع السموم!

ثم أمسك بملء راحتيه الثياب المتألقة، والأردية الأرجوانية والنعال الذهبية، والأمشاط، ومحكات الجلد، والمرايا والمصابيح والطنابير، والقيثارات، ورمى بها في الاتون الذي كان أبهى من محرقة "سردانابال"، في حين سكر العبيد بنشوة التدمير، فرقصوا وهللوا تهليلاً وحشياً تحت وابل من الشرر والرماد.

استيقظ الجيران على هذه الجلبة واحداً بعد واحد، ففتحوا نوافذهم، وفركوا عيونهم ليتبينوا مصدر الدخان، وخرجوا مرتدين بعض الثياب، واقتربوا من مكان المحرقة متسائلين:

ـ ما الخبر؟..

وكان بينهم التجار الذين اعتادت تاييس أن تشتري منهم العطور والملابس، فانزعجوا وأتلعوا أعناقهم محاولين إدراك كنه الأمر.

ومر بالمكان بعض الشبان الفاسقين الذين كانوا منصرفين من وليمة، يتقدمهم عبيدهم، فوقفوا ورؤوسهم متوجة بالزهر، وأرديتهم محلولة العري، وصاحوا صياحاً عالياً.

وأخذ هذا الجمهور الفضولي يزداد بغير انقطاع، وعرف أن تاييس أغراها كاهن أنصينا بحرق متاعها قبلما تعتزل في أحد الأديرة.

ففكر التجار في أمرهم، قائلين لأنفسهم:

ـ تاييس تاركة المدينة تنعي من بناها، فلن نبيعها بعد شيئاً، فما أفظع التأمل في هذا!.. يا ويلنا، ماذا يكون مصيرنا إذا زايلتنا؟.. إن هذا الراهب أفقدها رشدها، إنه يمحقنا، لماذا ترك حبله على غاربه ليأتي بمثل هذا؟ وما نفع الشرائع والقوانين؟ أفلم يبق في الاسكندرية قضاة؟ أن تاييس لا تفكر فينا أو في زوجاتنا وأطفالنا المساكين، إن مسلكها فضيحة عامة، ينبغي أن تكره على البقاء في المدينة إكراهاً...

وفكر الشبان من جهتهم:

ـ إذا كانت تاييس تكف عن التمثيل وتطلق الحب، فإن أعز الملاهي ينفض ويقفر، إنها كانت بهجة المسرح، ومجده الطارف، وعزه التليد، إنها كانت متعة ومسرة حتى للذين لم يحظوا بها، فيها أحب

المرء من أحب من النساء، وما من قبلة واحدة، تبودلت مع امرأة، لم يكن لتاييس فيها أثر... لأنها كانت لذة اللذات، ومجرد الشعور بأنها تتنفس بيننا، يهيج فينا اللذة!..

كذلك فكر الشبان، ومنهم فتى يدعى "شيرون" كان قد حظي بها يوماً، فأخذ يصرخ ناعياً هذا السلب والنهب، ساباً المسيح المغتصب.

وجميعهم ذموا تصرف تاييس وعابوه:

_ إنه فرار مخز!

_ إنه رحيل بجبانة

_ إنها آخذة الخبز من أفواهنا!

_ إنها ذاهبة بصداق بناتنا!

_ عليها، على الأقل، أن تدفع ثمن التيجان التي بعتها إياها؟

_ وثمن الستين حلة التي أوصتني بصنعها!

_ إنها مدينة لكل إنسان!

_ من التي تمثل بعدها أدوار "أفيجينيا" و"الكترا" و"بوليكسنا"؟ إن "بوليت" الجميلة لن تبلغ شأوها؟

_ ستكتئب الحياة إذا أغلق باب تاييس.

_ كانت الكوكب المتألق الساطع، كانت في سماء الاسكندرية، البدر المنير الطالع!

***

وفي تلك الفترة من الزمن، اجتمع في الساحة أشهر السؤال والمستعطين، من العميان والمقعدين والمشلولين، وزحفوا في ظل الأغنياء متأوهين:

ـ كيف نعيش لما لا يكون تاييس هنا لتطعمنا؟ إن فتات مائدتها كان يشبع كل يوم مائتين من المساكين، واعتاد عشاقها عندما يغادرونها، وقد طابت نفوسهم، أن يرمونا بملء أيديهم فضة..

واندس أيضاً وسط الزحام بعض اللصوص وأخذوا يصرخون صراخاً يصم الآذان، وزاحموا القريبين منهم ليزيدوا اختلال النظام، ويغنموا الفرصة لنشل ما خف حمله وغلا ثمنه!

أما الشيخ "تاديه"، بائع الصوف والكتان، الذي كانت تاييس مدينة له بمبلغ كبير من المال، فقد لبث وحده ساكناً في وسط الضجيج، أصاخ بأذنه، ودار بنظره، وداعب لحيته لحية التيس، ولاحت عليه سيماء التفكير، وأخيراً، اقترب من الشاب "شيرون" وشده من كمه، وقال بصوت خافت:

ـ أنت، أيها المولى الجميل، ذا حظوة عند تاييس، تدخل ولا تدع هذا الراهب يذهب بها!

فصاح شيرون:

ـ قسما ببولكس وكاستر، لن أدعه يفعل ذلك! سأخاطب تاييس وأحسبها، ولا فخر، ستصيخ إليّ أكثر مما إلى هذا الملوث بالرغام!.. أفسحوا الطريق! طريقاً يا رعاع!

وبعد أن أمعن في الرجال ضرباً بجمع يده، صارعاً العجائز، وواطئاً بقدميه الأطفال، وصل إلى تاييس، وأخذها جانباً قائلاً لها:

ـ يا بنيتي الحسناء! انظري إلي واذكري نفسك، واخبريني أصحيح أنك زهدت في الحب؟..

لكن بافنوس حال بينهما صائحاً:

ـ أيها الفاجر! اخش روعة الموت إن أنت لمستها! إنها مقدسة! إنها ملك الله.

فأجابه الفتى ساخطاً:

ـ سحقاً لك يا أيها النسناس!. دعني وحبيبتي أخاطبها، وإلا جررتك بلحيتك إلى النار حيث أشوي هيكلك القبيح شياً كالسجق!

ومد يده نحو تاييس، لكن الراهب دفعه بعيداً، بقوة غير منظورة، فترنح الفتى وسقط على بعد أربع خطوات من موضع المحرقة، وسط الشعل المنهالة.

وكان الشيخ تاديه يذهب أثناء ذلك من رجل إلى آخر، شادا آذان العبيد، مقبلاً أيدي السادة، يحرضهم جميعاً على بافنوس ويغريهم به، وما لبث أن ألف عصبة صغيرة سارت رأساً إلى الراهب الخاطف.

ونهض شيرون بوجه أسود، وشعر شائط، وقد كان يختنق من الدخان، واندفع متميزاً من الغيظ مجدفاً بالألهة، وألقى بنفسه في وسط المهاجمين الذين كان السائلون يزحفون من خلفهم، ملوحين بعكاكيزهم، فحصر بافنوس، في الحال، وسط دائرة من قبضات أيد ممدودة، وعصي مرفوعة، وصيحات مروعة.

ـ اشنقوا الراهب! اشنقوه!..

ـ كلا! اقذفوا به في النيران، اشووه حيا؟

فأمسك بقنيصته الجميلة، وضمها إلى صدره ضمة طويلة وصاح بصوت كالرعد القاصف:

ـ أيها الفجار! لا تحاولوا أن تختطفوا الحمامة من نسر الرب؟ أولى بكم ثم أولى أن تقتدوا بهذه المرأة وتتأسوا، وأن تبدلوا مثلها بتربكم

تبراً! احتذوا مثالها، وانبذوا المال الزائل الذي تظنون أنكم تملكونه، وهو الذي يملككم ويستعبدكم، عجلوا! فقريباً ما توعدون وأوشك الصبر الإلهي أن ينفد، توبوا واعترفوا بذنوبكم، وابكوا وصلوا واقتفوا أثر تاييس، اكرهوا خطاياكم التي لا تقل عن خطاياها، ليت شعري من منك غنياً كان أم فقيراً، تاجراً أم جندياً، عبداً رقيقاً أم عيناً وجيهاً.. يجرؤ على أن يقول بين يدي الله أنه كان خيراً من بغي فاجرة! ما أنتم إلا أدران متجسمة، وإنها لآية من لطف الله بكم ألا تتحولوا فجأة إلى مجار طافحة بالوحول..

وكان ينبعث من حدقتيه وهو يتكلم، شرر مستعر، وكأنما تساقط من شفتيه حجر متوهج، فأصغى إليه الذين من حوله صاغرين.

لكن "تاديه" الهرم لم يكف عن المقاومة، بل كل يجمع الحجارة وأصداف المحار ويخفيها في طيات ثوبه، ولم يجرؤ على أن يرميها بنفسه، قدمها في أيدي السائلين، وما لبث الراهب أن انهالت عليه الحجارة، وأصابت جبينه صدفة محارة أحكم تسديدها، وسال الدم الذي انحدر من وجه الشهيد الكئيب على رأس التائبة كتعميد جديد، وشعرت تاييس، وقد ضغطها عناق الراهب وخدش ثوبه الخشن جلدها الغض، بالرعب والجزع يسريان فهيا.

إذ ذاك أقبل رجل أنيق اللباس، متوج الجبين بالكرفس، وشق لنفسه طريقاً وسط الجمهور المائج، وصاح:

_ قفوا! كفوا إن هذا الراهب أخي!

وكان الرجل نسياس، وقد مر بالرحبة عائداً إلى داره بعد أن أغمض عيني الفيلسوف يوكريت، ورأى بغير كبير دهشة (لأنه لم يدهشه شيء

قط) المحرقة المدخنة، وتاييس مرتدية خرقة خشنة، وبافنوس يرجم.. فكرر قوله:

قلت لكم قفوا! ابقوا على رفيقي في المدرسة! احترموا رأس بافنوس العزيز!

لكنه كان متعوداً مباحثات الحكماء العويصة، يعوزه ذلك الحزم والتأثير الذي يسيطر على نفوس الجماهير ويتملك مشاعرهم، فأعاروه أذناً صماء، وسقط وابل من الحصى والمحار على الراهب الذي غطى تاييس بجسمه، حامداً الله الذي أعاضته رأفته من جراحه تربيتاً...

فلما يئس نسياس من حملهم على الاستماع، والانقياد إليه، وأيقن عجزه عن إنقاذ صديقه سواء بالقوة أو بالحجة، وسلم أمره للآلهة _ وكانت ثقته بهم ضعيفة _خطر له أن يجرب حيلة أرشده إليها فجأة احتقاره للبشر، فأخرج من منطقته كيس نقوده، وكان ممتلئاً بالذهب والفضة، لأن صاحبه من عشاق المسرات والمبرات، ثم حاول أن يغري الذين كانوا يرمون الحجارة برنين النقود، فلم يعيروه بداءة بدء التفاتاً، إذ كان حنقهم عظيماً، لكن أنظارهم، ما عتمت أن اتجهت شيئاً فشيئاً إلى الذهب الرنان، ثم كفت أذرعهم الواهنة عن إيذاء فريستهم.

ولما رأى نسياس أنه جذب أبصارهم، واجتذب نفوسهم، فتح هميانه وبدا يرمي في وسط الحشد قطع الذهب والفضة، فانحنى المتناهون في الشراهة لالتقاطها، فابتهج الفيلسوف بنجاحه المبدئي، وجعل يرمي هنا وهناك الدراهم والدنانير، وعلا رنين القطع المعدنية فوق الرصيف، فخرّ الراجمون إلى الأرض متزاحمين، وتسابق السائلون والعبيد والتجار،

والتف الأشراف حول شيرون ينظرون إلى المشهد ويقهقون فنسي شيرون غضبه، وشجع أصحابه المتناضلون والراكعون، واختاروا منهم سباقين وتراهنوا عليهم، وكانوا يزيدون الشحناء بتحريضهم أولئك البائسين كأنهم كلاب متقاتلة، وفاز مقعد، مقطوع الساقين، بالاستيلاء على درهم فعلا له الهتاف إلى عنان السماء، وبدأ الشبان أيضاً يرمون قطع النقود ولم يبق ثمة شيء يرى في الميدان سوى ظهور بشرية لا نهاية لها تعلو وتنخفض، كأمواج البحر الزاخر، تحت وابل مدرار من المعدن الرنان...

وغدا بافنوس نسياً منسياً.

فجرى إليه نسياس، وغطاه بمعطفه، وجره مع تاييس في الأزقة، إلى حيث باتوا بمأمن من المطاردة، ركضوا حيناً صامتين إلى أن رأوا أنهم صاروا في أمان، فتريثوا، وقال نسياس بنغمة التهكم الممزوجة بشيء من الحزن:

_إذن قضي الأمر! واغتصب "فلوطون" "بروزربين"[٢] وتريد تاييس أن تتبع صديقي الوحشي المنظر أينما يذهب بها!

فأجابت تاييس:

_ حقاً يا نسياس، لقد سئمت عشرة أمثالك البسامين، المتعطرين الكيسين، الأنانيين، ومللت كل ما أعرف، لذلك أنا ذاهبة للبحث عن المجهول، ولقد علمت بالاختبار أن الفرح لم يكن فرحاً حقيقياً، وهذا رجل يرشدني إلى أن الحزن هو الفرح الحقيقي، وإني أؤمن بما يقول، لأنه يعرف الحقيقة.

فأجاب نسياس مبتسماً:

_ وأنا أيتها النفس الحبيبة أعرف الحقائق! هو لا يعرف سوى واحدة، وأنا قد أحطت علماً بها جميعاً، فأنا أغنى منه، ولكني والحق يقال، لا أفوقه في كبرياء النفس، أو سعادة الجد!

ولما رأى الراهب يرشقه بنظرات نارية، قال:

_ لا تحسبن يا عزيزي بافنوس أني أعدك بالغاً غاية السخرية، أو نهاية الشطط، فلو قابلت حياتي بحياتك لما استطعت أن أقول أيهما أجدى وأنفع، ها أنا الآن ذاهب لأغتسل في الحمام الذي أعدته لي كروبيل ومرتال، وسآكل جناح دراج، وسأعيد _للمرة المائة _تلاوة بعض القصص "الميليزية" أو بعض مباحث "مترودور" وأنت ستعود إلى صومعتك حيث تركع كجمل وديع، مجتراً التسابيح والتعاويذ التي لاكها فمك مراراً وتكراراً، فإذا جاء المساء، تناولت الفجل بلا زيت، ولكن لا بأس! ففي قيامنا، يا صاحبي العزيز، بهذه الأعمال المختلفة في الظاهر كل الاختلاف _نخضع كلانا لعاطفة واحدة هي العامل الوحيد في جميع أفعال البشر، كلانا يبحث عن لذاته ويسعى في نيل القصد المشترك _السعادة.. السعادة المستحيلة! وهبني أرى نفسي مصيباً، فلا يليق بي أن أتعرض لتخطئتك يا حبيبي!

أما أنت يا تاييس، فاذهبي وأفرحي وكوني أسعد حظاً _إذا كان ذلك في الإمكان _في زهد التعفف وطهارة الخشونة، مما كنت في الغنى والمسرات، فمن كل وجه أراك جديرة بالحسد لأننا إذا كنا أنا وبافنوس في حياتنا بكاملها، قد قنعنا _امتثالاً لطبيعتنا _بضرب واحد من

ضروب المعيشة الراضية، فإنك يا عزيزتي تاييس قد ذقت في حياتك هذه المسرات المختلفة التي قلما يتاح لشخص واحد أن يتمتع بها، وحقاً كم أتمنى أن أكون ساعة واحدة قديساً أو ولياً كعزيزنا بافنوس، غير أن هذا محظور علي، فالوداع إذن يا تاييس!. اذهبي إلى حيث تقودك قوى طبيعتك ونصيبك وقسمتك الخفية! اذهبي مصحوبة أينما تذهبين بخير تمنيات نسياس! لست أجهل أنها فارغة، ولكن هل في استطاعتي أن أمنحك خيراً من تحسرات عقيمة وتمنيات باطلة جزاء التصورات السارة الممتعة التي ظللتني في حضنك فيما مضى، والتي بقي لي منها خيالها؟ الوداع أيتها المحسنة إلي، الوداع أيتها النعمة التي تجهل أنها نعمة! أيتها الفضيلة الغامضة! يا لذة الرجال! وداعاً يا أحق صورة بالعبادة بين الصور الجميلة التي تنثرها الطبيعة دواماً، لغاية مجهولة، على وجه أرضنا الغرور!

وفي أثناء كلامه، كان قلب بافنوس يغلي من الحنق، فتفجر بهذه الشتائم:

_ بعداً لك أيها اللعين، إنني أحتقرك وأمقتك! ابتعد يا وليد جهنم الذي هو شر ألف مرة من أولئك الأشقياء الضالين الذين كانوا الآن يرمونني بالحجارة وهم يسبون! إنه فعلوا ذلك عن جهل، وغفران الله الذي رجوته لهم قد يهبط يوماً على أفئدتهم... أما أنت يا نسياس المرذول فلست سوى حمة غادرة وسم زعاف، أنفاس فمك تنفث اليأس والموت، بسمة واحدة من بسماتك تحوي تجديفات أكثر مما تقذفه شفتا ابليس الملوثتان في قرن من الزمان... تباً لك أيها الكنود، إلى الوراء!..

فنظر إليه نسياس بانعطاف، وقال:

ـ الوداع يا أخي، ليتك تصون إلى نهاية أجلك كنوز ايمانك ومقتك وحبك!.. الوداع يا تاييس!عبثاً تنسينني وأنا على ذكرك جد حريص!

تركهما وسار مفكراً في الطريق المتعرجة بجوار مقبرة الاسكندرية الكبرى التي يسكنها صناع أواني الدفن الفخارية، وكانت حوانيتهم ملأى بتلك الدمى المزوقة المصنوعة من الصلصال تمثل آلهة وآلهات وتماثيل صامتة، ونسوة وجنيات صغيرات مجنحة جرت العادة بدفنها مع الموتى، فخطر لنسياس أن بعض الصور التي يراها قد تصحبه في نومه الأبدي، وخيل إليه أن "أيروسا" صغيراً، مشمر الثوب، يضحك ساخراً، فلما استحضر صورة جنازته التي صورها خياله قبل أوانها تألم، فحاول تبديد حزنه بالفلسفة، وأقام هذا الدليل:

ـ حقاً إن الزمان وهم لا حقيقة له، فما هو إلا ضلالة من تصورنا، وإذا لم يكن له وجود، فكيف يستطيع أن يجلب الموت إلي؟ فهل معنى هذا أني أحيا إلى الأبد؟ كلا..! ولكنني أستنتج من هذا أن موتي كائن، وقد كان دائماً، كما أنه سيكون أبداً، لم أشعر به بعد، ولكنه موجود، وينبغي ألا أخشاه، ومن الحمق أن أخاف مجيء ما قد أتى، إنه موجود، فكأنه آخر صفحة من كتاب أقرؤه، ولم أتمم قراءته.

شغله هذا التعليل في مسيره، دون أن يبهجه، وكان مكتئب النفس عندما وصل إلى عتبة داره، وسمع ضحك جاريتيه كروبيل ومرتال الرنان، وكانتا تلهوان في انتظاره بلعب الكرة...

***

غـادر بافـنوس وتاييس المدينة من بـاب القـمر، وسـارا على شـاطئ البحر، فقال الراهب:

ـ أيتـهـا المرأة! هذا البـحـر الأزرق الـكبـيـر لا يسـتطيع كله غـسل نجاستك...

ثم خاطبها بغضب واحتقار؟

ـ يا أنجس من كلبة، وأشد رجساً من خنزيرة، لقد أبحت للفحشاء مع الوثنيين والكافرين جسداً خلقه الصمد ليكون محراباً... وإن أدناسك لعـديدة حـتى أنك الآن، وأنت تعـرفين الحق، لا تسـتطيـعين أن تضـمي شفتيك، وتجمعي يديك، بغير ما يتولد في قلبك تقزز من نفسك...

تبعـتـه، خافضـة له جناح الذل والطاعـة، في المسـالك الوعـرة، تحت أشعة الشـمس المحرقـة، فأضعف التـعب ساقـيـهـا، وأحرق الظمأ أنفاسـهـا وألهب حلقـهـا، أمـا بافنوس، فـبدلاً من أن يـشـعـر بتلك الشـفـقـة الكاذبة التي تـلين القلوب الدنسـة، فـقـد فـرح بالآلام التـكفـيـرية التي تـنال هذا الجسـد الآثم... ولشـدة تأثير الحـمـيـة القدسـيـة فـيـه، ود لو مزق ضـرباً بالعـصي، هذا الجسم الذي احـتفظ بجمـاله، كبرهان ساطع على فجوره، ولما ذكر أن تاييس ضاجعت نسياس، واستحضر في مخيلته تلك الصورة البشـعة، جرى دمه كله مرتداً إلى قلبه وكاد صدره ينشق، وغص حنجرته باللعنات، فحرق الارم، ووثب منتصباً أزاءها شاحباً، رهيباً، وقـد ملأته قـوة الله، ونظر إليـهـا حتى اخترقت نظراته أعماق نفسـهـا، ثم بصق في وجهها...

فمسحت مـحياها بهدوء وانكسار، دون أن تقف في سيرها، فـتبعها

محملقاً فيها كأنما هي هاوية، ومشى مغتاظاً مفكراً في أن يثأر للمسيح حتى لا يثأر المسيح لنفسه، وإذا به يرى قطرة من الدم سالت من قدم تاييس فوق الرمال، هنا أحس بطراءة أنفاس مجهولة تدخل قلبه المفتوح... فتعالت التنهدات الوفيرة إلى شفتيه، فبكى، ثم جرى وخر أمامها، ودعاها أخته، وقبل قدميها الداميتين، وتمتم مائة مرة:

_ أختاه، أختاه، أماه! يا أقدس قديسة!

ثم قدم هذا الدعاء:

_ يا ملائكة السماء! خذوا قطرة الدم هذه باعتناء، وضعوها أمام عرش الله... ليت الرمل الذي بلله دم تاييس ينبت شقائق نعمان ليسترد الذين يرون هذا الزهر نقاوة القلب وطهارة الشعور.. أي تاييس، أيتها القديسة البالغة غاية القداسة!

وإذ كان يصلي ويتنبأ، مر به غلام على أتان، فأمره بافنوس أن يترجل، ثم أركب تاييس الأتان وأمسك باللجام، واستأنف مسيره...

***

أمسيا عند قناة مظللة بأشجار أنيقة، فربط الأتان بجذع نخلة، وافترشا الأحجار، وتقاسما رغيفاً أكلاه متبلاً بالملح، والثغام، وشربا براحتيهما ماء سائغاً، وتحدثا في الأبديات...

قالت تاييس:

_ ما شربت قط مثل هذا الماء النمير، ولا استنشقت مثل هذا الهواء العليل، وإني لأحس أن الله سبحانه وتعالى يسبح في النسمات التي تهب...

فأجابها بافنوس:

_ انظري؟ إنه المساء يا أختاه! هو ذا ظلال الليل الزرقاء تغطي التلال... لكن لم تلبثي أن تري "خبايا الحياة" مشرقة في الفجر، وتشاهدي إشراق ورد الصباح السرمدي!

وسارا سواد الليل، وأنشدا المزامير والتسابيح، حينما كان نور الهلال يقبل وجنات الأمواج الفضية، وعندما أشرقت الشمس، امتدت أمامهما الصحراء الليبية كجلد أسد واسع الأطراف، وفي آخر الرمال لاحت لأعينهما، في ضوء الفجر، خصاص بيض بقرب بعض النخيل، فسألت تاييس:

_ هل هذه هي خبايا الحياة، يا أبت؟

_ لقد حذرت يا ابنتي وأختي، هذا هو الملجأ الذي سأضعك فيه بيدي.

وما لبثا أن شاهدا نساء يجلن من كل صوب حول مساكن التنسك، كالنحل حول القفير، وكان بعضهن يخبزن، والبعض يجهزن البقول، والبعض يغزلن الصوف، وعليهن نور السماء ينسكب كابتسامة من ثغر الله.. وأخريات كن جالسات في ظل أشجار الإثل ومنصرفات للتأمل والتفكير، وأيديهن البيض بجوانبهن، لأنهن إذ شغفن حباً، اخترن نصيب المجدلية، فانقطعن للصلاة والتأمل، لذلك سمين "المريمات" وكن يرتدين ثياباً بيضاء، أما اللاتي كن يشتغلن بأيديهن فقد أطلق عليهن اسم "المرتيات"، وكن يلبسن ملابس زرقاء، وكن جميعهن مقنعات لكن اللائي كن في نضارة الشباب أرسلن خصل الشعر تتدلى فوق الجبين،

ولعل لك كان، كما يغلب على الظن، عفواً بغير قصد، لأن نظام الدير يحظره...

وكانت هناك عجوز بلغت من الكبر عتياً، طويلة القامة، بيضاء اللون، تسير من خص إلى آخر متكئة على عكاز من خشب متين، فاقترب منها بافنوس باحترام، ولثم طرف خمارها، وقال:

_ عليك سلام الله يا ألبين الموقرة! لقد أتيت إلى القفير الذي أنت ملكته، بنحلة وجدتها ضالة في طريق مجدب لا زهر فيه، فأخذتها في راحتي، وأدفأتها بأنفاسي، إني أعطيك إياها...

وأشار بإصبعه إلى الممثلة التي كانت راكعة أمام بنت القياصرة.

فألقت ألبين على تاييس نظرة ثاقبة، وأمرتها بالنهوض، وقبلت جبينها، ثم تحولت نحو الراهب قائلة:

_ سنضعها بين "المريمات".

فأخبرها بافنوس عندئذ بالوسائل التي أحضرت تاييس بها إلى "بيت الخلاص"، وسألها أن تعزل، بداءة بدء، في صومعة، فقبلت رئيسة الدير، وقادت التائبة إلى خص خلا بموت العذراء "ليتا"، ولم يكن في هذه الصومعة الضيقة سوى فراش ومائدة وإبريق، ولما وضعت تاييس قدمها على العتبة امتلأت بهجة لا حد لها.

فقال بافنوس:

_ أريد أن أقفل الباب بنفسي، وأن أضع عليه ختماً يأتي المسيح ويكسره بيديه.

وذهب إلى حافة النبع، وأخذ قبضة من الصلصال، ومزجه بشيء من

ريقه، ووضع فيه شعرة من شعره، وسد به شق الباب، ثم اقترب من النافذة، حيث كانت تاييس واقفة، وادعة، راضية، وسقط على ركبتيه، وحمد الله ثلاثاً، وصاح:

_ ما أجمل التي تسير على الصراط المستقيم!.. ما أبدع قدميها وما أبهى محياها!..

ثم نهض، وأرخى برنسه على عينيه، وسار الهوينى مبتعداً.. فنادت ألبين إحدى العذارى، قائلة:

_ احملي يا ابنتي إلى تاييس كل ما هي في حاجة إليه، من خبز، وماء وناي ذي ثلاثة ثقوب...

الهوامش:

١ _ Eros هو اسم يوناني لإله الحب عند الإغريق .

٢ _في الميترولوجيا أن pluton هو ملك الجحيم وإله الموتى ، وإن زحل Saturne إله الزمان وسبيل Cybele ربة الأرض ، وأخوا جوبيتير Jupiter ونبتون Neptune وزوج بروزربين Prospine ربة الجحيم التي اختطفها "_المترجم"



الفريبيون[1]

قفل بافنوس راجعاً إلى الصحراء المقدسة، واستقل بقرب "تل أتريب Athribis" مركباً صاعداً في النيل يحمل المؤن لدير السرابيوم ولما خرج من السفينة تقدم تلاميذه لملاقاته بمظاهرات الفرح العظيمة، لأنهم عرفوا ما تم بمدينة الاسكندرية على يديه، وكان الكهنة يتلقون عادة، بوسائل سريعة مجهولة، الأخبار المتعلقة بأمن الكنيسة ومجدها، وكانت الأنباء تذاع في الصحراء بسرعة ريح السموم.

وبينما كان بافنوس يذرع الرمال، تبعه تلاميذه مسبحين بحمد الله، واعترى "فلافيان" أكبر أخوته، هذيان ديني فجائي، فأخذ يترنم بأنشودة ملهمة...

ولما وصلوا إلى صومعة الرئيس، ركعوا جميعاً، وقالوا:

ـ يا ليت أبانا يباركنا ويعطي كلا منا مقداراً من الزيت لنحتفل بعودته!..

أما بولس الساذج، فقد لبث وحده واقفاً يتساءل: "من هو هذا الرجل؟"... ولم يعرف بافنوس، على أنه لم يعر أحد قوله التفاتاً لما عرف عنه من عدم الذكاء والفطنة، مع كونه موفور الصلاح.

***

خلا كاهن "أنصينا Antione" في صومعته، فقال في نفسه:

_ أراني قد استعدت أخيراً ملاذ راحتي وهنائي، وعدت إلى معقل قناعتي واكتفائي، لكن ماذا حدث حتى أن هذا السقف العزيز المصنوع من الغاب، لم يستقبلني كصديق، ولا قالت الجدران أهلاً وسهلاً!.. ما تغير منذ رحيلي شيء في هذا المقام المختار، هذا خواني، وهذا فراشي، وهذا رأس المومياء الذي طالما أوحى إليَّ الأفكار النافعة، وهذا هو الكتاب الذي كثيراً ما بحثت فيه عن صور الله... ومع ذلك لا أجد شيئاً مما تركته، كأنما قد عريت الأشياء من رونقها المعهود، ويخيل إلي أني أراها اليوم أول مرة، عندما أنظر إلى هذه المائدة، وهذه الأريكة التي صنعتهما يداي في الأيام الخَالية، وإلى هذا الرأس الأسود اليابس، وإلى أدراج البردي المملوءة بآيات الله _يلوح لي أنها آثار رجل ميت، وأراني، بعد أن تعرفتها كلها، لا أكاد أعرفها!.. وا أسفاه!.. إنه ما من شيء في الحقيقة قد تغير حولي، ولكنني أنا الذي لم أبق الشخص الذي كنته، أنا رجل آخر، فالرجل الميت هو أنا.. يا إلهي!.. ما الذي صار إليه سلفي؟ ما الذي أخذه مني؟ وما الذي تركه لي؟ ومن أكون أنا؟

وقد انزعج بخاصة لما وجد أن صومعته صغيرة، مع أنه كان يجب _ إذا نظر إليها بعين الإيمان _أن يراها كبيرة ولا يرى نهايتها، لأن سعة الله غير المحدودة تتبدى منها...

بدأ يصلي، ملصقاً جبهته بالرغام، فتعزى، واسترد شيئاً من الفرح، وما كادت تمضي عليه الساعة في التضرع والابتهال، حتى مرت أمام عينيه صورة تاييس، فردد الشكر لله:

_ يا يسوع! إنك أنت الذي بعثت بها إلي، فاعترف بفضلك العظيم

علي، أردت أن تسر خاطري وتهدئ ثائري، برؤية التي أعطيتك إياها، أراك تمثل أمام ناظري بسمتها التي زال الخوف من أذاها، ورقتها البريئة التي لم تعد منها ضير ولا ضرار، وجمالها الذي نزعتِ منه شوكته الناخسة! إنك لكي ترضيني، يا إلهي، تظهرها لي كما زينتها وزكيتها ابتغاء رضاك، مثلما يذكر الصديقِ صديقه بالهدية التي تلقاها منه، لذلك أرى هذه المرأة مبتهجة، لثقتي بأن طيفها آت من لدنك، إنك لا تنسى أنني وهبتها لك يا يسوع!. فاحتفظ بها، ما دامت تسرك، ولا تدع محاسنها تسبي أحداً سواك...

قضى الليل كله ساهراً، ما اكتحل بنوم ولا أخذته سنة، ورأى تاييس بجلاء أظهر مما رآها "في كهف العذارى" فزكى نفسه بقوله:

_ إن ما فعلته، قد فعلته لمجد الله...

ومع ذلك بلغ منه الدهش مبلغه، لأن قلبه لم يطمئن، فتنهد قائلاً:

_ لم أنت حزينة يا نفسي، ولماذا أنت تقلقينني!

وبقيت نفسه في انزعاج، ولبث ثلاثين يوماً على هذه الحال من الكآبة التي تعد نذيراً للناسك بمحن هائلة، وشر مستطير، لم تفارقه صورة تاييس ليلاً ولا نهاراً، ولم يبعدها عنه لأنه كان لا يزال يظن أنها أتت من عند الله، وأنها صورة قديسة...

لكنها في صباح أحد الأيام، تراءت له في حلم، وكان شعرها متوجاً بزهور البنفسج، وكانت رائعة في حلاوتها حتى أنه صرخ من شدة الخوف... فاستيقظ وقد بلله العرق البارد، وكانت عيناه لا تزالان مثقلتين بالنعاس، فشعر بأنفاس رطبة دافئة تمر على وجهه، أنفاس ابن آوى صغير، وضع مخلبيه عند رأسه، وأخذ يلهث لهاثه النتن في وجهه ويضحك من أقصى بلعومه...

فشده بافنوس وأخذ منه العجب كل مأخذ، وشعر كأنما قد انهار تحت قدميه صرح شامخ...

أجل!.. ففي الواقع أنه سقط من ذروة إيمانه المتقوض...

قضى بعض الزمن مضطرب الفكر، ولما ثاب إليه رشده، أفضت تأملاته إلى زيادة قلقه، فقال في نفسه:

_ أما أن تكون هذه الرؤيا من الله مثل سابقاتها، فهي صالحة، وفسادي الطبيعي قد أفسدها، كما يتحول النبيذ خلاً في الكأس القذرة، وقد أبدلت، لعدم جدارتي، من النعمة نقمة، واغتنم ابن آوى الشيطاني فرصتها واستفاد منها، وأما ألا تكون من عند الله بل من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، فهي شريرة، وساءت سبيلاً، وفي هذه الحالة أشك فيما إذا كانت الرؤى السابقة من مصدر سماوي كما حسبتها، فأنا والحالة هذه قاصر حتى عن التمييز الذي لا بد منه للزاهد، وأرى الله يبدي في كلتا الحالتين، نفوره مني، وإعراضه عني، وهو ما أشعر بتأثيره، وأعجز عن تعليله...

وعلى هذا النمط برهن، ثَم تضرع بكرب:

_ يا أيها الإله العادل.. بأية تجاريب تبلو عبادك، إذا كانت أشباح قديسيك خطراً عليها؟.. دعني أميز بعلامة واضحة، ما يأتي منك وما يأتي من الشيطان...

* * *

صحت عزيمة بافنوس بعد ذلك على أن يكف عن التفكير في تاييس أن تجاذبته الشكوك ولم يتح له الله، جلت مقاصده، أن يهديه السبيل، لكن تصميمه ظل عقيماً، فإن الغائبة عنه، كانت حاضرة معه،

وكأنها تنظر إليه وهو يقرأ، ويفكر، ويصلي ويتأمل.. وكان اقترابها الصوري، يسبقه صوت كحفيف ثوب امرأة في أثناء مسيرها، وكانت هذه الخيالات، أدق من الحقائق التي تتزعزع ويعتريها الارتباك، بينما الأشباح الناشئة من العزلة، تمتاز بأهم ميزاتها من حيث شدة الثبات والرسوخ...

أتته تاييس بأشكال مختلفة، تارة مفكرة وقد توج جبينها بآخر تيجانها التي أحرقت، ومرتدية كما كانت في مأدبة الاسكندرية، ثوباً أرجوانياً مرصعاً بأزهار من فضة واستبرق، وطوراً خليعة في سحابة من نقبها الشفافة، مستحمة في ظلال "كهف العذارى"، وحيناً متألقة في أطمار الفرح السماوي، وحيناً آخر مفجوعة، تدور عيناها في مفازع الموت، وقد أبانت عن صدرها العاري المخضب بدم قلبها الكليم...

وكان أشد ما أزعجه من هذه الخيالات، رجوع الأكاليل والأثواب والنقب التي أحرقها بيديه، إذ اتضح له أن لهذه الأشياء روحاً لا تفنى ولا تبيد، فصاح:

_ ها هي أرواح خطايا تاييس التي لا تحصى تأتي إلي!.. ولما التفت، شعر بتاييس وراءه، فلم يزدد إلا انزعاجاً، وكان شقاؤه بالغاً أشده، ولكن إذ أن نفسه وجسده بقيا نقيين في وسط هذه التجربة، لم يقنط من رحمة الله، وتقرب منه رافعاً هذه الشكوى برفق وخشوع:

_ إلهي إذا كنت قد ذهبت إلى هذا البعد السحيق، أتفقدها بين الكافرين، فقد كان ذلك لأجلك، لا لأجل نفسي، فليس من العدل أن أعذب لما فعلته في طاعتك ونفعك، أسبل علي ستر حمايتك يا يسوع الحليم.!.. يا مخلصي خلصني!.. لأتيح للشيخ أن يقضي ما عجز الجسد

عن فعله، أما وقد انتصرت على الجثمان فلا تدع الخيال يصرعني، لا أجهل أني معرض لمخاطر أعظم جداً مما تعرضت له قبلاً، ولا يخفى على أن الحلم أقوى من الحقيقة، وكيف لا يكون كذلك وهو ذاته حقيقة سامية؟ هو النفس، وافلاطون ذاته مع كونه وثنياً، سلم بصحة وجود الحقيقة، وفي مأدبة الشياطين التي صحبتني إليها يا رب، سمعت أحاديث رجال مع كونهم أشراراً، لم يكونوا خالين من الذكاء، وقد اتفقت كلمتهم، على أن ما نبصره في العزلة والتفكير والذهول هو حقيقي، وكتبك المقدسة يا إلهي، تثبت في مواضع عديدة صحة الأحلام وتأثير الخيالات الصادرة، أما منك يا إلهي جل شأنك، وأما من عدوك...

كان فيه رجل جديد، فناقش الله، ولكنه سبحانه لم يبادر إلى هدايته وإرشاده، كانت لياليه حلماً واحداً طويلاً، ولم تكن أيامه تختلف عن لياليه.

استيقظ ذات صباح وهو يصعد زفرات كالتي تصدر في ضياء القمر عن قبور ضحايا الجرائم، لأن تاييس كانت قد أتته تريه قدميها المخضبتين بالدماء، فلما أغرورقت عيناه بالدموع، اندست في فراشه، فلم يبق عنده أقل شك في أن صورة تاييس كانت صورة إثم ودعارة...

فثار قلبه تقززاً وفاض اشمئزازاً، وانتزع نفسه من فراشه النجس انتزاعاً، وخبأ وجهه في يديه كيلا يرى نور النهار، ومرت الساعات بغير أن تمحو عاره، وخيم السكوت على الصومعة، وأخيراً غادره الشبح، على أن غيابه كان كذلك مزعجاً، وما من شيء على الإطلاق ألهاه عن تذكر الحلم الفاضح، ففكر هالعاً مرتاعاً:

_ لماذا لم أدفعها عني؟ لماذا لم أنتزع نفسي من ذراعيها الباردتين، وركبتيها الملتهبتين؟..

لم يعد يجرؤ على النطق باسم الجلالة بقرب ذلك الفراش الكريه، وأشفق أن تكون صومعته قد تنجست فيستبيح الشياطين دخولها في كل آن، ولم تكذبه مخاوفه، فبنات آوى السبع التي كانت ملازمة بابه ولم تخط قط عتبته، قد دخلت على التعاقب وكمنت تحت المضجع، وعند صلاة المغرب، أقبل الثامن وكانت رائحة نتنة وبيئة لا تطاق، وفي اليوم التالي انضم التاسع إليها، وما لبثت أن صارت ثلاثين ثم ستين ثم ثمانين، وكانت كلما تكاثرت تصاغرت، ولما لم تزد على حجم الفأر غطت الأرض والفراش والمقعد، ووثب أحدها على الرف الصغير عند رأس المضطجع ووضع مخلبيه الأماميين فوق جمجمة المومياء، ثم نظر إلى الراهب بعينين ناريتين...

وفي كل يوم كانت بنات آوى جديدة تجيء يزحم بعضها بعضاً..

***

فلكي يكفر بافنوس عن رجس حلمه، ويتخلص من الأفكار المدنسة قر رأيه على أن يغادر صومعته التي نجست، ويضرب في فيافي الصحراء يمارس تقشفاً وتزهداً لم يسمع أحد بمثلهما، ويقوم بأعمال فريدة تسير بذكرها الركبان، ويقدم كفارة مالها من نظير، لكنه رأى أن يذهب إلى الشيخ بالمون لاستشارته قبل تنفيذ خطته.

فوجده في بستانه يروي خسه، وقد مال ميزان النهار، وجرى النيل الأزرق في سفح التلال البنفسجية، وكان الشيخ الصالح التقي يمشي الهوينى لكيلا يزعج حمامة حطت على كتفه، قال:

_ الرب معك، يا أخي بافنوس! أعجب برحمته سبحانه! يبعث إلي بالحيوانات التي خلقها لأحدثها عن أعماله، وأمجده في طير السماء!

انظر إلى هذه الحمامة ولاحظ ألوان عنقها المتغيرة، وقل لي: أليست من أعمال الله الجميلة؟ ثم قل لي: أو لم تأت يا أخي لتحدثني عن بعض شؤون الدين؟ إذا كان الأمر كذلك، فسأنزل رشاشتي وألقي بسمعي إليك.

فحكى له بافنوس حكاية رحلته، وعودته، ورؤياه في النهار، وأحلامه بالليل، ولم يغفل ذكر الحلم الأثيم، وجماعة بنات آوى، ثم قال:

_ ألا ترى يا أبي أنه يجب علي أن أتغلغل في الصحراء، لأقوم فيها بأعمال خارقة، وأدهش إبليس بزهدي واستماتتي؟..

فأجابه بالمون:

_ لست سوى خاطئ مسكين، وخبرتي بالناس قليلة، إذ قضيت طول حياتي في هذا البستان مع الغزلان والأرانب الصغيرة والحمام، لكن يلوح لي يا أخي أن مرضك ناشئ على الخصوص من انتقالك بغتة بغير حيطة، من جلبة المعمورة إلى سكينة القفرة، هذه الانتقالات الفجائية لا بد أن توهن صحة النفس، ومثلك يا أخي مثل رجل يعرض نفسه، في وقت واحد تقريباً، للقيظ والقر، فيرجه السعال وتبرح به الحمى، ولو كنت في موضعك يا أخي بافنوس، لكنت بدلاً من الاعتزال في الحال في صحراء مرعبة، آخذ بالتسليات الصالحة لناسك تقي كاهن ورع، كنت أزور الأديرة المجاورة، وبعضها كما يقال عجيب، فدير السرابيوم يحوي على ما بلغني اثنتين وثلاثين وأربعمائة ألف صومعة، والرهبان فيه منقسمون إلى شعب عديدة بقدر حروف الهجاء اليونانية، ويؤكد الثقاة أيضاً انه قد لوحظت مشابهات صادقة بين خصال الرهبان وأشكال الحروف التي تدل عليهم، فالذين هم، على سبيل المثال، موضوعون تحت حرف "ي" ذوو خصال معوجة، على حين أن المرتبين تحت حرف "أ" ذوو

عقول مخصبة، ونفوس مستقيمة، ولو كنت مكانك يا أخي لذهبت وتحققت هذا الأمر بنفسي، وكنت لا يقر لي قرار حتى أبصر هذا الشيء العجيب، وكنت لا أغفل دراسة سنن الطوائف المختلفة المنتشرة على ضفاف النيل، لأتمكن من المقايسة بينها، هذه واجبات تصلح لرجل ديني مثلك، ولقد سمعت دون ريب "أفرايم" رئيس الدير وضع قوانين روحانية على جانب كبير من الجمال فتستطيع وأنت الكاتب النحرير، أن تنسخها بإذن منه، أما أنا فما كنت لأستطيع ذلك لأن يدي، وقد اعتادتا استخدام المعول، تعوزهما المرونة اللازمة لتسيير قصبة الكاتب الرشيقة فوق صحائف البردي، لكنك يا أخي تعرف قواعد الخط الجميل، فلتحمد الله على ذلك الفضل العظيم! إن عمل الناسك والقارئ هو أعظم واق من الخواطر الخبيثة، فلماذا لا تدوّن يا أخي بافنوس تعاليم أوينا بولس وانطوان؟ بهذه الأعمال الدينية، تسترد شيئاً فشيئاً سكينة النفس وهدوء الحواس، وستطيب لك الوحدة مرة أخرى فلا تلبث أن تصير في حالة فكرية تمكنك من العودة إلى أعمال الزهد التي كنت تؤديها قبلما تعطلها رحلتك، ولقد اعتاد أبونا أنطوان، لما كان بيننا، أن يقول: "الإفراط في الصوم يولد الضعف، والضعف يسبب الجمود والتراخي، فبعض الرهبان يتلفون أجسادهم بصيام مطول بغير تبصر، فهؤلاء يصح أن يقال فيهم أنهم يغمدون خنجراً في صدورهم ويسلمون أنفسهم كالجمادات إلى الشيطان"، كذلك قال القديس أنطوان: نعم، لست سوى جاهل، لكني بنعمة الله قد وعيت قول أبينا...

فشكر بافنوس للشيخ بالمون نصيحته، ووعد بالتفكير فيها، ولما تخطى السياج الذي يحيط بالبستان الصغير، التفت وراءه فرأى البستاني الصالح يروي خسه، بينما كانت حمامة، تترجح فوق ظهره

المحني، وعندما استوعب بافنوس هذا المشهد، كاد يجهش بالبكاء وراود الدمع جفونه!..

***

عاد إلى صومعته، فوجد هناك حشداً غريباً كأنه حبات رمل سفاه ريح عاصف، ثم ميزه، فإذا هو عشرات الألوف من بنات آوى...

وفي تلك الليلة، رأى في حلم عموداً حجرياً مرتفعاً يعلوه وجه بشري، وسمع صوتاً يقول:

_ اصعد هذا العمود!

فلما استيقظ مقتنعاً بأن الحلم أتاه من السماء، دعا تلاميذه وخاطبهم بهذه الكلمات:

_ أولادي المحبوبين: إني تارككم إلى حيث يرسلني الله، فأطيعوا في غيابي فلافيان كما تطيعوني، واعتنوا بأخينا بولس، بارك الله فيكم، استودعكم الله...

ظلوا راكعين وهو يمعن في سيره، ولما رفعوا رؤوسهم، رأوا شبحه الطويل القائم على أفق الرمال...

سار نهاراً وليلاً حتى وصل إلى خرائب ذلك المعبد الذي بناه الوثنيون قديماً، وبات فيه بين العقارب والجن أثناء رحلته العجيبة، كانت الجدران المغطاة بالرموز السحرية لا تزال قائمة، ثلاثون عموداً هائلاً عليها رؤوس بشرية، أو أزهار لوتس لا تزال تسند الحجارة الضخمة، لكن في أحد أطراف المعبد طرح أحد هذه الأعمدة حمله القديم متخلصاً منه، وكان له تاج على شكل رأس امرأة باسمة، بعينين نجلاوين وخدين مستديرين، وعلى جبينها قرنا بقرة.

فلما رآه بافنوس عرف أنه العمود الذي ظهر له في حلمه، وقدر

ارتفاعه باثنين وثلاثين ذراعاً، فذهب إلى البلدة المجاورة، وأوصى بصنع سلم بهذا الارتفاع، ولما أسند السلم إلى العمود، صعد وركع على القمة وخاطب الرب سبحانه:

ـ هنا إذن يا إلهي المقام الذي اخترته لي، ليتني أبقى هنا في حماك، حتى يحين حيني، وتوافيني المنون.

لم يكن معه من الطعام شيء، إذ كان متوكلاً على العناية الإلهية، متوقعاً أن يمده الفلاحون الكرام بما يقوته، وحدث في عصر اليوم التالي أن بعض النساء والأولاد أتوه بتمر وماء أصعدهما إليه الصبيان حتى قمة العمود.

ولم تكن قمة العمود من الاتساع بحيث تمكن الراهب من التمدد بطوله كله، فنام متربعاً ورأسه ملقى على صدره، وكانت متاعب النوم لديه أشد من عذابات اليقظة، وعند الفجر، كانت البواشق تصفعه بأجنحتها ليستيقظ متألماً مرتاعاً.

واتفق أن النجار الذي صنع السلم كان رجلاً صالحاً، فقلق من جراء تعرض القديس للشمس والمطر، وأشفق عليه من خطر السقوط وهو مستغرق في نومه، فأقام فوق العمود سقفاً، وركب حوله سياجاً.

وما لبث صيت هذا المقام العجيب أن ذاع في البلاد، وأقبل عمال الوادي في أيام الآحاد مع نسائهم وأولادهم ليشاهدوا "صاحب العمود"[٢]، ولما سمع تلاميذ بافنوس بمكان عزلته المرتفع، احتشدوا بقربه، واستأذنوا في بناء أكواخ لهم حول العمود، وكانوا في كل صباح يقفون في دائرة حول الرئيس يستمعون لتعاليمه، وهو يقول لهم:

أولادي! ابقوا كالأطفال الذين أحبهم المسيح، إن إثم الجسد مصدر كل الخطايا ورأسها، إنها تتوالد منه كأنه أب لها، فالكبر والشح

والكسل والغضب والحسد ذريته المحبوبة، وإليكم ما رأيته في الاسكندرية: رأيت الأغنياء مسوقين بنقيصة الترف، وقد جرفتهم مثل نهر عكر، إلى دوامة بحر أجاج...

ولما بلغت الرئيسين أفريم وسرابيون حكاية هذه البدعة المستحدثة، راما رؤيتها بأعينهما، فلما شاهد بافنوس على بعد شراع المركب القادم بهما، فكر في كون الله تعالى قد جعله مثالاً لجميع الزاهدين، ولما رآه كبيرا الدير لم يخفيا دهشتهما، فتشاورا ثم بدآ يلومانه على قيامه بمثل هذه الكفارة الخارقة للعادة، وحثاه على النزول قائلين له:

ـ إن مثل هذا الضرب من الحياة مضاد للعرف، وهو شاذ ومخالف للقوانين.

فأجابهما بافنوس:

ـ وهل حياة التنسك إلا حياة الشذوذ؟ أليس من الواجب أن تكون أعمال الناسك فذة مثله؟ أنني بوحي إلهي صعدت إلى هنا، وبوحي منه تعالى أنزل...

وكان النساك يأتون كل يوم فرقاً لينضموا إلى تلاميذ بافنوس وبنوا لأنفسهم مآوي حول المنسك الجوي، وصعد كثيرون منهم، تشبهاً بالقديس، فوق أطلال المعبد، لكنهم ما لبثوا أن نزلوا إذ عنفهم إخوانهم، وأنهكهم التعب فأقلعوا عن تلك المحاولات...

وجاء الحجاج من كل فج عميق، وقدم بعضهم من بعد سحيق، فكانوا جياعاً عطاشاً، فخطر لأرملة فقيرة أن تبيعهم ماءً بارداً وبطيخاً، فاستندت إلى العمود، ووقفت وراء قللها الحمراء وفاكهتها، تحت خيمة مخططة باللونين الأزرق والأبيض، وأخذت تصيح: "يا أيها الظماء! هو

ذا الماء!"، فحذا حذوها خباز وأحضر آجراً وبنى بجوارها مخبزاً، مؤملاً أن يبيع الغرباء الخبز والكعك، ولما كان جمهور الزائرين في ازدياد مستمر، وأخذ سكان مدن مصر الكبرى يفدون تباعاً، شيد رجل آخر فندقاً لنزول السادة وخدمهم وجمالهم وبغالهم... وسرعان ما قامت أمام العمود سوق أحضر إليها الصيادون أسماكهم، والبستانيون بقولهم وثمارهم، وثم مزين يقص للناس شعرهم في الهواء الطلق، ويسلي الجمهور بأقواله الزائفة، ونكاته الشائقة.

وما لبث المعبد العتيق الذي شملته السكينة والسلام دهراً طويلاً، أن امتلأ بجميع لغات الدنيا ومشاهدها غير المعدودة، وحول الفندقيون المغاور إلى قاعات تحت الأرض سمروا بدعائهما المتهدمة إعلانات تعلوها صورة القديس بافنوس، وعليها باليونانية والمصرية هذه الكلمات:

هنا يباع نبيذ التين والرمان وجعة " أدنة" الأصلية.

وعلى الحيطان المزدانة بنقوش متقنة جلية _علق الباعة البصل والسمك المشوي والأرانب المذبوحة والأغنام المسلوخة، وفي المساء انسلت الجرذان _ضيوف الخرائب القديمة _هاربة إلى النهر، وأتلعت الكراكي أعناقها وهي تنتقل بحذر وتردد فوق الطنوف العالية التي تصاعد إليها دخان المطابخ وعربدة السكارى وصياح السقاة، وخطط المساحون الشوارع، وشيد البناءون الأديرة والمعابد والكنائس، وما انقضت ستة أشهر، حتى أنشئت بلدة بمخفر ومحكمة وسجن، ومدرسة يعلم فيها شيخ فقيه أعمى...

وكان الحجاج لا عداد لهم، وبينهم كثيرون من المطارنة وكبار رجال الدين، أقبلوا وهم في غاية الإعجاب، وأتى بطريرك إنطاكية الذي كان وقتئذ في مصر، مصحوباً بجميع حاشيته، فاستصوب كثيراً تصرف

"صاحب العمود" الخارق العادة، ووافقه على استصوابه رؤساء كنائس ليبية، في غياب أثناسيوس، ولما علم بذلك أفرايم وسرابيون، أتيا يعتذران عما فرط منهما، فأجابهما بافنوس:

_ أعلما يا أخوي أن الكفارة التي أكابدها بالجهد تساوي التجارب التي تعرضت لها، وقد هالني ما رأيت من كثرة عددها وشدة وطأتها، أن الإنسان يرى حسب الظاهرة صغيرة الحجم، ومن قمة العمود حيث وضعني الله، أرى بني البشر يروحون ويغدون كالنمل، لكننا إذا أمعنا النظر في الإنسان من الباطن، نجده عظيماً جداً، عظيماً كالدنيا لأنه يسعها، هذه المشاهد المنبسطة أمامي _هذه الأديار والمنازل والسفن والقرى، وما أراه على بعد من حقول وترع ورمال وجبال _ليست شيئاً بالنسبة إلى ما هو في، ففي قلبي أحوي مدناً لا تعد، وصحارى لا تحد، والشر والموت، يمتدان فوق هذا المتسع غير المحدود، يدثرانه كما يدثر الليل الأرض، وفيّ أنا وحدي عالم أفكار شريرة...

قال هذا القول، لأن اشتهاء المرأة كان متسلطاً عليه، ممتزجاً بلحمه ودمه...

***

وفي الشهر السابع أتى إليه من الاسكندرية وتل بسطه وسائس، نساء عاقرات، يرجون أن يرزقن أولاداً بشفاعته وبركة العمود، فحككن خواصرهن بالحجر، ثم أقبلت مواكب لا يبلغ الطرف آخرها من المركبات والمحفات والنقالات، وازدحمت حول العمود القائم عليه رجل الله، وخرج منها مرضى في حالة مخيفة، وعرضت الأمهات على بافنوس أولادهن المصابين بالكساح والعمى والسعال الديكي والخناق وغيرها من العلل، فوضع يديه عليهم، واقترب منه العميان ومتلمسين، وأظهر له المفلوجون

ما هم عليه من الشلل التام والسقم المميت وانقباض عضلاتهم البشع، وأراه المقعدون أرجلهم المعوجة، وأمسكت النساء المصابات بالسرطان نهودهن، وكشفن عن صدورهن التي افترسها الرحم الخفي، وجثمت أمامه النساء المصابات بالاستسقاء، وكن منتفخات كزق الخمر، فباركهن كلهن، وتقدم النوبيون المصابون بالبرص الفيلي بخطوات متثاقلة ونظروا إليه بعيون مخضلة بالدموع، فرسم علامة الصليب فوقهم، وأحضروا إليه من نعش من بلدة "أفروديتو _بوليس" بنتاً صغيرة نفثت دماً ونامت ثلاثة أيام كاملة فكانت كأنها صورة من الشمع، وظن أبواها أنها قضت نحبها فوضعا سعفة على صدرها، فابتهل بافنوس إلى الله، فرفعت البنت رأسها وفتحت عينيها...

فلما شاع بين الناس أمر المعجزات التي عملها القديس، أقبل الجم الغفير من المصابين بالداء الذي أطلق عليه الإغريق اسم "المرض الإلهي" من جميع أنحاء مصر، فما شاهدوا العمود حتى تشنجوا وتمرغوا على الأرض واختبلوا وتكوروا، ومما يكاد لا يصدق أن الحاضرين أصيبوا بدورهم بهذيان شديد، والتووا كالمصروعين، وتمرغ الكهنة والحجاج الرجال والنساء مختلطين بعضهم البعض، والتوت أطرافهم، وفاض الزبد من أشداقهم وهم يلتهمون التراب بالحفنات ويتنبأون.

فشعر بافنوس، من قمة عموده، برعدة تتمشى في أعضائه، وصاح متجهاً إلى الله:

_ أنا التيس المغضوب عليه، حمال الذنوب، أحمل في عنقي أدران هؤلاء الناس، وهذا يا رب هو سبب امتلاء جسدي بالأرواح الشريرة.

وكان كلما مضى مريض وقد شفي مما أصابه، يحمله الحاضرون هاتفين هتاف الانتصار.

ولقد علقت مئات العكازات حول العمود المعجز وعلقت عليه النساء الشاكرات أكاليل الزهر والصور المنذورة، ودون فيه بعض الإغريق قطعاً من الشعر البليغ، ونقش عليه كل حاج اسمه حتى أصبح كله مغشياً بما لا يحصى من الحروف اللاتينية، واليونانية والقبطية والفرجينية والعبرانية والسورية والسحرية.

***

وجاء عيد الفصح فتدفق على مدينة العجائب هذه سيل جارف من البشر حتى أن الطاعنين في السن حسبوا أنهم عادوا إلى أيام الأسرار القديمة، فكنت ترى فوق السهل الفسيح، حلل المصريين ومعاطف اليونانيين القصيرة، وأردية الرمان الطويلة، وسراويل البرابرة القرمزية، وأثواب السراري الذهبية، وكانت النساء المحجبات يجتزن الطريق راكبات الحمير يتقدمهن خصيان سود يفسحون لهن بالعصي، وفرش البهلوانيون على الأرض سجادهم، ولعبوا ألعاباً مدهشة أمام دائرة من المشاهدين الذين عاينوها وكأن على رؤوسهم الطير، وعرض الحواة مشاهد غريبة من الثعابين والأفاعي، ومدوا أذرعهم ونشروا مناطقهم الحية...

وهكذا كان حشد عظيم يضيء ويتألق، ويعفر، ويطنطن، ويهدر ويجعجع، فمن شتائم الجمالة وهم يجلدون جمالهم، إلى صياح التجار الذين كانوا يبيعون تعاويذ الوقاية من الجذام والإصابة بالعين، إلى ترانيم الرهبان وهم ينشدون آيات من الكتاب المقدس، إلى عواء المتسولين وهم يرددون أغاني الحريم القديمة، إلى ثغاء الغنم، ونهيق الحمير، ونداء البحارة والمسافرين المتباطئين _هذه الأصوات كلها امتزجت بعضها ببعض فألفت ضجيجاً يصم الآذان، وزاد عليها زناط

أولاد الزنوج العراة الذين كانوا يجرون من مكان إلى آخر يعرضون للبيع البلح الرطب.

وكانت جميع هذه المخلوقات المختلفة قد حشرت تحت السماء الصافية الأديم، في جو كثيف محمل بعطور النساء، وطيب الزنوج ودخان الطهي، وأبخرة الصموغ التي اشتراها من الرعاة تقيات النساء، ليحرقنها بخوراً أمام القديس.

ولما جن الليل، كانت النيران والشعل والمصابيح تضيء في كل مكان، فما كان ثمة شيء يرى سوى أظلال حمراء، وأشكال سوداء، وقام في وسط دائرة من المنصتين الجالسين القرفصاء، شيخ هرم يمثل "خيال الظل"، فقص حكاية أحد القدماء الذي انتزع قلبه من صدره ودفنه في جوف شجرة سنط، ثم حول نفسه إلى شجرة! وعمل الرجل حركات كررها ظله بمبالغة مضحكة، فهتف الحضور معجبين، واضطجع السكارى في الحانات على الأرائك، وطلبوا الجعة والنبيذ، ومثلت أمامهم راقصات مكتحلات العيون، عاريات البطون، بعض المشاهد الدينية والمناظر المحركة للشهوات، وفي جانب آخر، كان الشبان يلعبون النرد والرجال المسنون يتبعون البغايا في الظلام.

وفوق هذه الصورة المتحركة كان العمود وحده ثابتاً، وعليه بافنوس مراقباً، بين السماء والأرض، وارتفع القمر فجأة فوق النيل كذراع آلهة عار، فسالت التلال بأضواء زرقاء، وخيل إلى بافنوس أنه يرى لحم تاييس مشرقاً في تألق المياه في كبد الليل الياقوتي...

مرت الأيام وظل القديس فوق عموده. فلما أتى فصل الأمطار اخترقت مياه السماء شقوق السقف وغمرت جسده، فعجزت أعضاؤه

المخدرة عن الحركة، وأحرقت الشمس جلده، وحمره الندى فتشقق، والتهمت القروح الكبيرة ذراعيه وساقيه، بيد أن شهوة تاييس ظلت تجيش في داخله وترعى في باطنه، فصاح:

_ أيها الرحمن! هذا لا يكفي! زدني من التجارب والوساوس! زدني من الأفكار الشريرة والشهوات الخبيثة! أئتني يا رب شهوات الناس كلها كي أكفر عنها جميعاً! لست أصدق ما سمعته من بعض الدجالين عن كلبة "اسبارطة" أنها حملت خطايا العالم، ولكن لهذه الأسطورة معنى خفياً أدركه الآن، لأن آثام البشر تدخل حقيقة أرواح الأولياء لتغرق فيها كما في هاوية، وعلى هذا فنفوس الأبرار مدنسة بأدران أرجس جداً من التي في نفوس الأشرار، لهذا أحمدك يا إلهي وأشكر فضلك لجعلك إياي بالوعة أقذار الكون!..

***

وحدث يوماً أن انتشرت في المدينة المقدسة إشاعة ذات شأن، وبلغت الناسك، وهي أن قائد أسطول الاسكندرية لوسيوس أوريلوس كوتا _ قادم... وعما قليل يصل...

كانت الأنباء صادقة، وكان كوتا الشيخ، الذي خرج يتفقد الترع والملاحة في نهر النيل، قد أبدى غير مرة رغبة في مشاهدة "صاحب العمود" والمدينة الجديدة التي أطلق عليها اسم "ستيلوبوليس Stylopolis".

وفي صباح أحد الأيام رأى سكان "مدينة العمود" النهر مغطى بالأشرعة، وظهر كوتا على ظهر سفين مطلية بالذهب مشدودة الأرجوان، يتبعها أسطوله الصغير، فخرج يصحبه كاتم سره، حاملاً ألواح كتاباته، واريسستيه طبيبه الذي كان يشجوه حديثه. سار وراءه خدم وحشم

كشيرون، وغطي الشاطئ بالأردية الرومانية وبذلات الجند الرسمية، فوقف على بضع خطوات من العمود وبدأ يفحص صاحبه ماسحاً جبهته خلال ذلك بطرف وشاحه ولما كان طلعة بطبعه فقد لاحظ أشياء كثيرة في رحلاته الطويلة حن لذكرها، وعقد العزم على أن يكتب، بعد أن أتم التاريخ القرطاجني، كتاباً عن الأشياء العديدة التي رآها، وبدا عليه أنه سر كثيراً بالمشهد الذي أمامه، قال، وقد عرق ولهث:

_ إنه لشيء غريب! وإنها لحادثة تستحق أن تسجل، فالرجل كان ضيفاً عليّ يوماً من الأيام، أجل!... هذا الكاهن تعشى معي في العام المنصرم وبعدها خطف إحدى الممثلات.

تم التفت إلى كاتم سره، وقال:

سطر هذا يا بني في الواحي، كذلك دون قياس العمود، ولا تغفل الإشارة إلى شكل القمة.

ثم مسح جبينه ثانية، وقال:

_ لقد أكد لي الثقات أن كاهناً صعد فوق هذا العمود منذ سنة خلت، ولم يغادره قط، فهل هذا من الإمكان يا أريستيه؟..

فأجاب أريستيه:

_ إنه في إمكان رجل معتوه أو مريض، لكنه مستحيل على إنسان متمتع بقواه العقلية والبدنية، أو لا تعلم يا لوسيوس أن أمراض العقل والجسد تمنح أحياناً المصابين بها قوة لا يتمتع بها الأصحاء؟ الحق أقول أنه لا وجود حقيقي للصحة الجيدة ولا للصحة الرديئة، نعم.. توجد حالات متباينة لأعضاء البدن، وقد اتضح لي من دراسة الأمراض أنها أشكال ضرورية للحياة، وقد وجدت في دراستها لذة أكبر مما في محاربتها..

ومنها ما لا يمكن إغفال الإعجاب به، وهو ما يخفى تحت اعتلاله الظاهري، أعمق النظامات وأدقها، كالحمى الرباعية مثلاً[٢]، وفي بعض الأوقات تكون أمراض الجسد وسيلة لترقية خواص العقل، وإني لأضرب لك مثلاً " كريون" الذي كان في صغره ألكن غبياً فصار بعد أن هشم جمجمته بسقوطه من سلم، ذلك القانوني الضليع الذي تعرفه، ولا بد أن يكون هذا الكاهن مصاباً في بعض أعضائه الباطنية، ومع ذلك فهو غير متفرد في نوع معيشته كما يلوح لك يا لوسيوس، تذكر متريضي الهند الذي يستطيعون البقاء بغير حراك البتة لا عاماً واحداً، وإنما عشرين وثلاثين، بل أربعين عاماً!...

فأجاب كوتا:

ـ قسماً بجوبيتير أن هذا ضلال مبين، لأن الإنسان خلق ليعمل، والجمود جريمة، لأنه مضر بالدولة، وإني لا أدري لأية ملة أعزو هذه العادة المنحوسة، ويحتمل أن بعض المذاهب الآسيوية مسؤول عنها. لما كنت حاكماً على سورية، شاهدت نصباً في أروقة مدينة الحيرة، وكان يعلوه رجل مرتين في كل عام، ويبقى فوقه سبعة أيام، وكان الناس مقتنعين بأن هذا الرجل يتوسل للآلهة بحديثه معها فتنزل على سورية المن والسلوى، وقد استهجنت هذه العادة، لكنني لم أعمل على إبطالها لأني أرى أنه لا يجوز للحاكم أن يستأصل عادات أهل البلاد، بل عليه أن يرعاها، وليس للحكومة أن تلزم الناس عقيدة، فإن واجبها المحافظة على ما هو موجود منها، سواء غثاً كان أم سميناً، فقد سنته روح الزمان والمكان والجماهير، فإذا سعت الحكومة في محاربة دين من الأديان، ظهرت مظهر الثائر العاتي، وكانت حرية بالبغضاء، هذا فضلاً عن أن

السبيل الوحيد للترفع عن خزعبلات العامة هو فهمها وإباحتها. وأرى يا أريستيه أن أترك ساكن المدينة السحب هذا في الجو بسلام، معرضاً لشتائم الطير وغزواتها وحدها، وفائدتي ليست في البطش به، وإنما في استطلاع أفكاره، وما ملكت إيمانه وعقائده.

ثم نفخ، وسعل، ووضع يده على كتف كاتم سره، وقال:

ـ دوّن يا بني أن خطف العاهرات والجلوس على العمد يعدان عند بعض طوائف المسيحيين أمراً محموداً! ولكن علينا أن نسأل الرجل نفسه في هذا الموضوع.

ثم رفع رأسه، وأظل عينيه بيده من الشمس، وصاح:

ـ ياهو! يا بافنوس! إذا كنت تتذكر أنك كنت ضيفي، فأجبني: ماذا تصنع في هذا المكان؟ لماذا صعدت حيث أنت ولماذا تقيم! وأية دلالة لهذا العمود في فكرك؟

فلم يتنزل بافنوس لإجابة كوتا، لأنه كان يعده وثنياً، لكن تلميذه فلافيان تقدم وقال:

ـ يا مولاي العلي الشأن! إن هذا القديس يحمل خطايا العالم. ويبرئ الأمراض.

فصاح كوتا:

ـ يميناً بجوبيتير! اسمعت يا أريستيه؟ إن "ساكن مدينة السحب La aphelo coccygien" يزاول الطب مثلك!.. فماذا تقول في هذا الزميل المعلى؟

فهز أريستيه رأسه وقال:

ـ يجوز أنه يفوقني في شفاء بعض الأمراض، مثل الصرع المسمى بين العامة بالمرض الإلهي، وأن تكن الأمراض جميعها إلهية على

السواء، لأنها كلها تأتي من الآلهة، وللوهم تأثير في هذا المرض، وأنت ترى يا لوسيوس إن هذا الكاهن، الجاثم هكذا فوق رأس العمود، يؤثر في أذهان المرضى تأثيراً أقوى من تأثيري أنا في معمل عقاقيري، فوق هواويني وقواريري توجد يا لوسيوس قوى أشد بأساً من العقل والمعرفة.

فسأله كوتا:

ـ وما هي؟...

فأجاب أريستيه:

ـ الجهل والحماقة.

فقال كوتا:

ـ إن ما أراه أمامي الآن لمن الأشياء التي ينذر أني رأيت أشد منها شذوذاً، وآمل أن يروي يوماً كاتب قدير قصة تشييد "مدينة العمود". ولكن لا يجوز للرجل الرزين العامل أن يعاق حتى بأندر المشاهد عن تأدية واجباته، هيا بنا نتفقد الترع، الوداع يا بافنوس الصالح! أو بالحري إلى الملتقى! إذا حدث يوماً أن نزلت إلى الأرض وعدت إلى الاسكندرية، فأرجو ألا تنسى الحضور لتناول العشاء معي.

سمع الحاضرون هذه الكلمات، فتلقفها فم بعد فم، وأذاعها المسيحيون ورددوها، فأضافت إلى مجد بافنوس مجداً جديداً، وقد زينت المخيلات الورعة هذه الكلمات وعظمتها، وأشيع أن القديس قد هدى، من قمة عموده، قائد الأسطول إلى الإيمان بالرسل وآباء "نيسيه"، وضمن المسيحيون كلمات أوريليوس كوتا الأخيرة معنى مجازياً، فعدوا العشاء الذي دعا كوتا الناسك إليه عشاء ربانياً، وليمة روحية، مائدة سماوية!! وألبست قصة هذا اللقاء زخارف تفاصيل عجيبة، كان الذين ابتدعوها

أول من صدقها!! فقالوا أنه لما اعتنق كوتا الإيمان بعد جدل طويل، هبط ملك من السماء يمسح العرق عن جبينه! وزعموا أن طبيبه وكاتم سره اهتديا مثله.

ولما اشتهرت المعجزة، دونها شمامسة كنائس ليبية الكبرى ضمن الوقائع الموثوق بصحتها..

ومن ذلك الحين يمكن القول بلا تردد أن الدنيا من أقصاها إلى أقصاها قد تملكتها الرغبة في زيارة بافنوس، وإن كل المسيحيين في الغرب، كما في الشرق، ولوا أبصارهم الخاشعة شطره، وأوفدت أشهر مدن إيطاليا السفراء إليه، وكتب إليه قيصر روما قسطانس التقي، الذي ظاهر الأرثوذكسية المسيحية، كتاباً قدمه القاصدون الرسوليون باحتفال مهيب...

* * *

ففي إحدى الليالي والمدينة راقدة في الظل عند قدميه، سمع بافنوس قائلاً يقول:

_ لقد صرت يا بافنوس شهيراً بأعمالك، قوياً بأقوالك، لقد رفعك الله لرفعته، واختارك لعمل المعجزات، لتبرئ المرضى، وتهدي الوثنيين، وتنير الخاطئين، وتزعج الجاحدين الأريوسيين، وتعيد إلى الكنيسة السلام...

فأجاب بافنوس:

فلتكن مشيئة الله!...

فعاد الصوت يقول:

_ قم يا بافنوس واذهب للقاء قسطنطوس الطاغية في قصره، لأنه بدل أن يحتذي أخاه قسطانس في حكمته، مال إلى ضلالة أريوس

ومـاركـوس، اذهب! سوف تـفـتـح أمـامك الأبـواب النحـاسيـة وسـوف ترن نعلك فوق الممشى أمام عرش القياصرة.

وسوف يغير صوتك الرهيب قلب ابن قسطنطين، ويمتد سلطانك على الكنيسة، وكما تقود الروح الجسد، كذلك تسود الكنيسة على الامبراطورية، وسوف تضع حداً لجوع الناس وشراهتهم، وعتو البرابرة وفظاعتهم، وعندما يرى الشيخ كوتا أنك على رأس الحكومة، يبذل جهده ليحظى بشرف غسل قدميك، وعند موتك يؤخذ ثوبك الوبري إلى بطريرك الاسكندرية أثناسيوس الكبير الذي شاب في المجد، فيلثمه ويعده ذخراً من ولي حميد.. اذهب على الطائر الميمون!

فأجاب بافنوس:

_ فلتكن إرادة الله!

ثم اجتهد في الوقوف، واستعد للنزول، لكن صاحب الصوت ناجاه قائلاً:

_ إياك والنزول على السلم! فهذا ما يفعله الرجل العادي ولا يليق بمواهبك، قدر سلطانك بأحسن من هذا يا بافنوس الملائكي! ومن كان ولياً قديساً مثلك يجب عليه أن يطير محلقاً في الجو.. اقفز! إن الملائكة بانتظارك لتتلقاك فاقفز!

فأجاب بافنوس:

_ لتكن مشيئة الله كما في السماء كذلك على الأرض!

ثم وازن ذراعيه الممتدين، فكانا كجناحي طائر مريض عاريتين من الريش، وأوشك أن يقذف بنفسه، فرنت في أذنيه قهقهة استهزاء مرعبة، فسأل وقد أرهقه الجزع:

ـ من ذا الذي يضحك هكذا؟..

فعوى الصوت يقول:

ـ آه! آه! إنا لا نزال في بدء صداقتنا وسوف تتقوى يوماً آصرة المحبة بيننا فتعرفني جيداً، هو أنا يا عزيزي الذي جعلك تصعد إلى هنا، ويحق لي أن أبدي سروري بإذعانك الذي أتممت به جميع رغباتي، فأنا مسرور منك يا بافنوس.

فتمتم بافنوس بصوت يتهدج من الخوف:

ـ إلى الوراء! إلى الوراء! لقد عرفتك، أنت.. أنت الذي رفعت المسيح على ذروة الهيكل وأريته جميع ممالك الدنيا[4].

وسقط على الحجر فزعاً، وفكر:

ـ لماذا لم أعرفه من قبل؟ إنني أشقى من أولئك العمي والصم والمفلوجين الذين وثقوا بي، لقد فقدت كل دراية بالأشياء غير العادية، وصرت شراً من المعتوهين الذين يأكلون التراب ويقربون جثث الموتى، وعدت لا أميز ضجة جهنم من صوت السماء، لقد عدمت كل فطنة، حتى فطنة الطفل الرضيع، الذي يبكي عندما يؤخذ عن ثدي أمه، وفطنة الكلب الذي يقتفي أثر صاحبة بواسطة الشم، والنبات الذي يتجه صوت الشمس، فكنت ألعوبة الشياطين، وكذلك كان إبليس هو الذي أتى بي إلى هنا، لما رفعني فوق هذا العمود، صعدت معي الأهواء والكبرياء، فليست تجاربي هي التي تهولني، فقد كابد مثلها أنطوان فوق جبله، وأود أن تمزق سيوفها بدني أمام أعين الملائكة، نعم! لقد توصلت إلى إعزاز آلامي، غير أن الله صامت لا يبدي ولا يعيد، وصمته يحيرني ويدهشني، إنه يتخلى عني وليس لي سواه، إنه يدعني وحيداً في مخاوف أعراضه، إنه يفر مني وإني أروم الجري خلفه، هذا الحجر يلهب

قـدمي بشـواظ من نار، فـلأنطلق سـريعـاً، فـلأتركنه... وأرق أسـبـاب السموات لعلي أدرك الله!

وللحال أمسك بالسلم الذي كان قد بقي مستنداً إلى جانب العمود، ووضع قدمه عليه وهبط درجة فألفى نفسه مواجهاً لرأس الوحش الذي ابتسم ابتسامة غريبة، فتحقق أن المكان الذي اتخذه لسلامه ورفعته لم يكن سوى أداة جهنمية لرزئه المبرم، فسارع في النزول إلى الأرض وزلت قدماه والتفت ساقاه وتمايلتا، ولكنه وقد أحس بظل العمود فوقه أكره نفسه على الجري، وكان الكرى قد أخذ بمعقد كل جفن، فاجتاز الساحة الكبيرة المحوطة بالحانات والنزل والفنادق ولم يره أحد، واندفع إلى درب مؤد إلى تلال ليبيه، وتبعه كلب نابح لكنه وقف في مبتدى رمال الصحراء فلم يعدها، وأمعن بافنوس السير في بلاد مسالكها مغاور للوحوش الضارية، وخلف وراءه الأكواخ التي هجرها مزيفو النقود، وقضى في فراره الموحش ذلك الليل والنهار الذي تلاه.

أخيراً، وقد بلغ به الجوع والظمأ والإعياء حد النزع، وهو لا يزال يجهل مبلغ بعد الله منه، عثر على مدينة خيم عليها السكوت، وقد انبسطت عن يمينه ويساره ممتدة أمامه إلى ما وراء الأفق، وكانت مساكنها منفصلة بعضها عن بعض ومتشابهة كأنها أهرام قطعت إلى منتصف ارتفاعها، تلك كانت أجداثاً، محطمة الأبواب، ومن خلال قاعدتها شخصت عيون الضباع والذئاب التي تطعم جراءها، وعلى مدخلها جثث الموتى وقد عراها اللصوص ونهشتها الحيوانات المفترسة، ولما اجتاز بافنوس هذه المدينة _مدينة الموتى _سقط منهوك القوى أمام قبر منفرد بقرب ينبوع يظلله النخيل، وكان القبر كثير الزخرفة ولكنه بلا باب وفي داخله حجرة مملوءة بالأفاعي، فتنهد قائلاً:

- ههنا منزلي المختار، هيكل توبتي وندامتي، وخباء حسرتي وإنابتي.

- ثم دلف إليه، وطرد الصلال بقدميه، ولبث ملقى على الحجارة ثماني عشرة ساعة، ثم ذهب إلى الينبوع وشرب منه براحة يده، وجمع قليلاً من التمر وبعض الحبوب من أغصان اللوتس فتقوتها، واستصوب هذه المعيشة فجرى عليها، فما كان يرفع جبهته عن حجارة القبر من الصبح حتى المساء.

***

ففي ذات يوم إذ كان مطروحاً على هذا الوجه سمع صوتاً يقول له:

_ تأمل في هذه الصور لتتعلم!

فلما رفع رأسه رأى فوق جدران الحجرة تصاوير تمثل مشاهد مضحكة ومألوفة، وكانت قديمة العهد وغاية في الإتقان، بعضها يمثل طهاة ينفخون في النيران بخدود منتفخة، وبعضها يمثل أناساً ينتفون ريش الإوز أو يطبخون في الآنية شرائح الضأن، وبقربهم صياد يحمل على كتفيه غزالة مزقتها السهام، ومزارعون منهمكون بالزرع والحصاد، ونساء يرقصن على نغمات الرباب والناي والعود، وفتاة تضرب بالطنبور وزهرة اللوتس تتألق على شعرها الأسود المعقوص بشكل بديع، وكان ثوبها الشفاف يمكن الناظر من رؤية تقاطيع جسدها الرائعة، أما ثغرها وصدرها فقد نازعا الأزهار بهاء الصنع وجمال التكوين، فلما تأمل بافنوس فيها، غض من بصره وأجاب "الصوت" بقوله:

_ لماذا تأمرين بمشاهدة هذه الصورة؟ إنها ولا شك تمثل الحياة الترابية للكافر الدفين هنا تحت قدمي، في قاع جب، في تابوت من

صخر بركاني أسود، إنها تعيد حياة رجل ميت وتذكر به وهي على الرغم من ألوانها البراقة ليست سوى أظلال ظل، حياة رجل ميت.. فيا للغرور!..

فرد عليه "الصوت" بهذه الكلمات:

_ إنه ميت ولكنه قد عاش، وأنت ستموت ولن تكون قد عشت.
من ذلك اليوم لم يذق بافنوس طعم الراحة قط، واستمر الصوت يكلمه بلا انقطاع، ونظرت إليه الضاربة بالطنبور محدقة من تحت أهداب عينيها الطويلة، ثم كلمته قائلة:

_ انظر!.. إني خفية وحسناء، فاحببني، وأفرغ في حضني الهوى الذي يضنيك، إن خوفك لا يجديك نفعاً، ولن تستطيع الفرار مني، أنا جمال المرأة، فيا أيها المعتوه أين المفر؟ سوف تجد صورتي في بهاء الأزهار، في أناقة النخيل، وطيران الحمام، وقفز الغزلان، وتموج الغدران، وضوء القمر، وإذا أغمضت عينيك وجدتني في سويداء قلبك وقرارة نفسك، منذ ألف سنة ضمني إلى صدره الرجل الراقد هنا، ملفوفاً بأكفانه، فوق مضجع من حجر أسود، منذ ألف سنة تملى القبلة الأخيرة من فمي ولا يزال رقاده معطراً بشذاها، إنك تعرفني يا بافنوس حق المعرفة، فكيف تتجاهلني؟ إني أحد تجسدات تاييس التي لا تعد، وأنت راهب راسخ في العلم والمعرفة، وقد سافرت، والسفر خير معلم، وكم من يوم يقضي في الغربة ويأتي بطرف وفوائد لا تنال في عشر سنوات تقضى في الوطن. لقد طرق سمعك أن تاييس عاشت قديماً في "أسبارطة" باسم "هيلانة" وكانت لها حياة أخرى في مدينة طيبة، وأنا التي كانت تاييس طيبة، فكيف غاب عنك هذا الأمر؟ لما كنت على قيد

الحياة، اشتركت في أكثر خطايا العالم، والآن وإن كنت لست سوى خيال، لا أزال قادرة على الاشتراك في ذنوبك وحملها عنك أيها الراهب الحبيب، فما مصدر دهشتك؟ أيان تذهب. تجد تاييس حتماً أمامك.

فدق بافنوس جبهته بالحجارة وصرخ من شدة الفزع، وكانت الضاربة على الطنبور تترك الحائط في كل ليلة، وتتقدم وتتكلم بصوت جلي، ممزوج بأنفاسها الباردة، ولما قاوم القديس هذه التجارب كلها، قالت له:

_ ملك هواي فؤادك واذعن لي! ما دمت تقاومني فسأعذبك وأنكل بك، إنك لا تعرف مبلغ صبر امرأة ميتة، سوف أنتظر إذا لزم الأمر حتى تموت، وبوسعي، لكوني ساحرة، أن أضع في جثتك الهادمة روحاً تعيد إليها الحياة فلا تأبى إجابة ما رفضته الآن، فكر يا بافنوس في غرابة موقفك عندما تنظر روحك السعيدة من علياء السماء فترى جثمانها يستسلم للخطيئة! والله الذي وعد أن يرد إليك هذا البدن بعد يوم الحساب ونهاية الدهور سوف تعتريه هو أيضاً دهشة شديدة! كيف يقدر أن يحل في مجد سماوي جسماً بشرياً يسكنه الشيطان وترعاه ساحرة؟ إنك لم تحسب حساب هذه المشكلة، وربما لم يحسب الله لها أيضاً حساباً، إنه _والكلام بيني وبينك _ليس على شيء من الحذق والدهاء، وإن أبسط ساحرة لتخدعه بسهولة، ولو لم يكن لديه رعده وجنادل سمائه، لأخذه أطفال القرية بلحيته، الحق أنه ليس من الفطنة بمنزلة خصمه الثعبان المسن، فهذا الأخير فنان عجيب، وليس على هذا الحسن والجمال إلا لأنه أتقن زينتي، وعلمني كيف أضفر شعري، وأجعل أصابعي كالورد، وأظفاري كالعقيق، وأراك قد استخففت به لما أتيت لتعيش في هذا القبر، إذ أقصيت بقدميك الأفاعي التي كانت هنا وسحقت بيضها، ولم تبحث

عنها لتعلم هل كانت من أسرته، فأخشى يا صاحبي المسكين أن تكون قد سعيت إلى حتفك بظلفك، وعلى نفسها جنت براقش! ومع ذلك فقد أنذرت من قبل وجرى في علمك أنه موسيقار عاشق، فماذا فعلت؟ إنك تحديت العلم والجمال؟ فما أشقى حظك وأعثر جدك، أما "يهوه" فلن يجيء ليشد أزرك، فهو ضخم بحجم الكائنات كلها، فلا يستطيع التحرك لحاجته إلى فضاء، وإذا أتى بأقل حركة، وهذا مستحيل، انقلب الكون كله.. يا ناسكي الجميل، هات قبلة.

لم يكن بافنوس يجهل ما تأتي به فنون السحر من غريب الفعال، فحدث نفسه، وقد ألح عليه الوهم والقلق:

ـ ربما كان الرجل المدفون هنا تحت قدمي عارفاً بسر الكلمات المسطورة في ذلك الكتاب المملوء بالألغاز، في ضريح ملكي قريب من هنا، فبفضل هذه الكلمات يتخذ الموتى الأشكال التي كانت لهم على ظهر الأرض، فيرون نور الشمس وبسمة المرأة.

وكان أشد ما يخشاه أن تتعانق فتاة الطنبور والرجل الميت، كما في الحياة، فيراهما متلاصقان... وخيل إليه أحياناً إنه سمع صوت قبلات خفيفة...

ملك الاضطراب زمام أمره، والآن، وقد تخلى عنه الله، خاف الفكر كما خاف الشعور، وفي أحد الأمسيات، بينما كان ساجداً كعادته، قال له صوت مجهول:

ـ بافنوس! إن على سطح الأرض من الناس أكثر مما تظن، ولو أظهرت لك ما رأيت لمت من الخبل، فمنهم رجال لهم عين واحدة في وسط جباههم، ورجال لهم ساق واحدة يحجلون بدل المشي، ورجال من شجر تنمو جذوره في الأرض، ورجال يغيرون أجناسهم، وإناث يصيرون ذكوراً،

ورجال بغير رؤوس ولهم أيضاً عينان وأنف وفم في صدورهم ـ فهل تصدق، بذمتك، إن المسيح قد مات لأجل خلاص هؤلاء الناس؟

ورأى مرة أخرى رؤيا، رأى في نور ساطع جسراً وجداول وحدائق، وكان على الجسر أريستوبول وشيراش يركضان جواديهما السوريين، وقد صبغ حب السباق وجناتهما بالاحمرار، وكان الشاعر كاليكرات ينشد أشعاره تحت إيوان، وكبرياء الراضية تتهدج في صوته وتشرق من عينيه، وكان زينوتميس في بستان يجمع تفاحاً ذهبياً، ويلاطف ثعباناً ذا جناحين لازورديين، وهيرمودور يفكر تحت شجرة لبخ مقدسة تحمل بدل الأزهار رؤوساً بشرية صغيرة، أشرقت وجوهها وأزينت كمعبودات المصريين، ونسوراً وصقوراً، وقرص قمر متألق، بينما كان نسياس على حافة ينبوع يدرس، فوق فلك حلقي، حركات الكواكب المنتظمة..

وعندئذ اقتربت من الراهب امرأة مقنعة تحمل في يدها غصناً من الريحان، وقالت له:

ـ انظر! البعض ينشد الجمال الخالد ويطلب تأييد حياته الفانية، والآخرون قليلو الاكتراث، ولكنهم باستسلامهم هذا وحده للطبيعة الجميلة تراهم سعداء ذوي جمال وفي رغد من العيش يمجدون مبدع جميع الكائنات، فالإنسان هو أنشودة مطربة من أناشيد الله، وتراهم جميعاً يعدون السعادة جائزة والهناءة مباحة، فإذا كانوا على حق صادقين، فلشد ما تكون يا بافنوس غراً غافلاً.

ثم زالت الرؤيا...

***

وهكذا حاربت بافنوس التجارب والغوايات في جسده وعقله حرباً لا هدنة فيها، لم يدعه إبليس طرفة عين، مستريحاً، وكانت وحدة ذلك القبر

أعمر الناس من مفارق الطرق في مدينة كبيرة، وضج الشياطين من حوله بالقهقهات المرتفعة، وقامت هناك ملايين من أشباح الموتى بأعمال الحياة العادية، ولما مضى في المساء إلى الينبوع، رقصت حوله المسخوطات مختلطات بآلهات الحقول، وقدنه في دورانهن الفاسق، وعادت الشياطين لا تخشاه، وأثقلت عليه بالمداعبات وغمرته بالشتائم البذيئة واللعنات واللطمات، وسرق منه يوماً شيطان، لا يزيد طوله عن طول ذراعه، الحبل الذي يتمنطق به فناجى نفسه بقوله:

_ أيها الفكر، إلى أين اقتدتني؟.

فصمم على أن يشتغل بيديه، كي يمكن عقله من الراحة التي كانت تعوزه، وكان بقرب الينبوع أشجار موز كبيرة الورق نامية في ظل النخيل، فقطع جذوعها وحملها إلى القبر حيث سحقها بحجر وحولها إلى ألياف أو خيوط دقيقة مثلما شاهد صانعي الحبال يعملون، لأنه ارتأى صنع حبال بدل الذي سرقه الشيطان منه، فأحس الشياطين ببعض الانزعاج وكفوا عن ضجيجهم، وأقلعت فتاة الطنبور عن السحر، واستكنت على الجدار الملون، وشدد بافنوس شجاعته وإيمانه وهو يدق سيقان الموز، وحدث نفسه بما يأتي:

_ سأتغلب بعون الله على الجسد، أما الروح فقد احتفظت بالرجاء، وعبثاً تحاول الشياطين وهذه المرأة الجهنمية أن تدخل على نفسي الشكوك في طبيعة الله، سأجيبها بلسان يوحنا الرسول:

"في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة الله"، إن إيماني بهذا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإن كان هذا الذي أؤمن به لغواً باطلاً زدت إيمان به رسوخاً وثباتاً، بل إنه يجب أن يكون لغواً باطلاً ولو لم

يكن كذلك لما كنت أؤمن به بل كنت أعرفه، فالآن لا تمنح المعرفة الحياة ولكن الإيمان وحده هو الذي ينقذ.

عرض الألياف المنسولة للشمس والندى، وعني في كل صباح بتقليبها فلا تتعفن، وسر بإحساسه بأن سذاجة الطفولة قد انبعثت في نفسه، ولما جدل الحبل قطع الخوص ليصنع منه حصراً وسلالاً، فأشبهت حجرة الضريح مشغل صانع السلال، واستطاع بافنوس أن ينتقل فيها بسهولة من العمل إلى الصلاة، بيد أن الله تعالى كان لا يزال معرضاً عنه، لأنه استيقظ في إحدى الليالي على صوت ثلجت بسماعه أطرافه رعباً، إذ عرف فيه صوت الرجل الميت..

دعا الصوت مستعجلاً بهمس خفيف:

_ هيلين! يا هيلين! تعالي استحمي معي، تعالي سريعاً!

فأحس بافنوس فجأة بخده وقد استقر على ثدي امرأة، عرف أنها الضاربة بالطنبور، ولكنها تخلصت قليلاً ورفعت صدرها، فتعلق بافنوس تعلق اليائس بالجسد الناعم، الدافئ، العطر، وصاح وقد أضنته منية القضاء المبرم والرغبة في الموت الزؤام:

_ البثي، البثي يا سمائي.

لكنها كانت إذ ذاك واقفة بالباب، فضحكت، وفضضت أشعة القمر ابتسامتها، وقالت:

_ وماذا يفيدك بقائي؟ إن ظل الظل يكفي عاشقاً مثلك وهب له مثل هذا الحدس النير، فضلاً عن أنك قد أثمت، ففيم ترغب بعد ذلك؟ وداعاً! إن عشيقي يناديني...

قضى بافنوس الليل في بكاء ونحيب ولما لاح الفجر، فاه بضراعة أرق من شكاية، وقال:

ـ يا يسوع! يا سيدي يسوع! لماذا تتخلى عني؟ إنك ترى الخطر المحدق بي، فتعال شد أزري أيها المخلص الحليم، هو ذا أبوك أصبح لا يحبني ولا يسمعني، فاذكر أنه لم يعد لي سواك إنه لا يرجى منه شيء لي، إنني لا أستطيع إدراك كنهه، وهو لا يرق لحالي، لكنك ولدت من امرأة، وهذا ما يجعلني اطمئن إليك، وأرجو الخير على يديك، تذكر أنك كنت بشراً، إنني أضرع إليك لا لأنك نور من نور، وإله حق من إله حق، بل لأنك عشت معدماً وضعيفاً على هذه الأرض حيث أشقى وأعاني، ولأن الشيطان جرب جسدك، ولأن عرق النزع ثلج جبينك، لإنسانيتك يا معلم الإنسانية أصلي وأتوسل، يا سيدي يسوع، يا أخي يسوع!..

ولما فرغ من ابتهاله، وقلب كفيه، اهتزت جدران القبر بقهقهات مهيبة متتابعة، وقال له الصوت الذي سمعه فوق قمة العمود، باستهزاء:

ـ إن هذا الدعاء جدير بصلوات ماركوس الضال، إن بافنوس أريوسي[5] بافنوس أريوسي!

فكأنما انقضت صاعقة على الراهب، فخر مغشياً عليه...

***

لما أفاق بافنوس وفتح عينيه، رأى حوله رهباناً في حلل سوداء، وكانوا يصبون الماء على صدغيه ويتلون التعاويذ، وقد وقف كثيرون منهم خارج القبر حاملين سعف النخل.

قال لهم أحدهم:

ـ سمعنا، ونحن نجتاز الصحراء، صيحات مرتفعة من هذا القبر، فدخلنا، فألفيناك طريحاً فوق الحجارة مغمى عليك، ولا ريب أن الشياطين صرعوك، ولما شعروا بدنونا ولوا هاربين...

فرفع بافنوس رأسه، وسأل بصوت خافت:

ـ من أنتم يا إخواني؟ ولماذا تحملون سعف النخيل؟ أو ليس هذا لأجل دفني؟

فأجاب أحدهم:

ـ ألا تعلم يا أخي أن أبانا أنطوان، وقد بلغ من العمر خمساً بعد المائة، قد أتاه نذير بأن نهايته دنت، فنزل من جبل كلزان، حيث كان معتزلاً، ليبارك أبناءه الروحيين الكثيرين، فها نحن أولاء ذاهبون نحمل السعف لنلقى أبانا الروحي، فكيف بقيت جاهلاً مثل هذا الحادث الجلل؟ أفلم يأت إلى هذا القبر ملك لينبئك؟

فأجاب بافنوس:

ـ وا أسفاه! لست جديراً بمثل هذا الفضل العظيم، وليس سكان هذا الربع سوى عفاريت وطاويط، صلوا من أجلي، أنا بافنوس، كبير رهبان أنصينا، أشقى عباد الله...

فلما سمعوا اسم "بافنوس" هزوا سعفهم، ورددوا التسابيح، وصاح الذي تكلم من قبل، متعجباً:

ـ أفيمكن أن تكون أنت بافنوس ذلك القديس الذائع الصيت بأعماله، حتى أن الناس يعدونه بالغاً يوماً في الفضل مبلغ أنطوان العظيم؟ يا أقدس قديس إنك أنت الذي هدى العاهرة تاييس الصراط المستقيم، وأنت الذي إذ صعد على عمود عال حملته الملائكة، فرأى الذي يخفرون العمود ليلاً انتقالك الميمون إلى السماء، وقد أحاطت بك أجنحة الملائكة في سحابة بيضاء، وامتدت يدك اليمنى وباركت مساكن البشر، وفي صباح اليوم التالي إذ لم يرك الناس، ارتفع أنين طويل إلى

العمود غير المتوج، على أن تلميذك فلافيان أذاع المعجزة وقام مقامك في تولي شؤون الرهبان، لكن رجلاً واحداً ساذجاً يدعى بولس، حاول أن ينقض ما أجمعت عليه الآراء، فقد أكد أنه رآك في حلم محمولاً بالشياطين ... فأراد الناس أن يرجموه، وقد نجا من الموت بأعجوبة، وأنا "زوزيمس" رئيس هؤلاء المساكين الساجدين عند قدميك، أركع أمامك مثلهم، كي تبارك الأب مع الأبناء ثم تخبرنا بالعجائب التي أنعم الله عليك بأن أجراها على يديك...

فأجاب بافنوس:

_ لست استحق شيئاً مما وصفتني به، فإن الرب قد بلاني بأهول التجارب، ولم تحملني الملائكة بل إن حائطاً من الظل قام أمام ناظري وتقدمني... لقد عشت في حلم، وكل شيء من دون الله حلم، لما شخصت إلى الاسكندرية سمعت في بضع ساعات خطباً كثيرة، وعرفت أن جيش الضلال لا عدد له، وقد طاردني، وأحاطت بي سيوفه...

فأجاب زوزيمس:

_ علينا أن نذكر يا أبي الموقر، أن الأولياء، ولاسيما المتنسكون منهم، يعرضون لتجارب مخيفة، وإذا لم تكن أذرع الملائكة قد حملتك إلى السماء، فمن المحقق أن الرب قد أنعم بهذا الفضل على صورتك، إذ كان فلافيان والرهبان والناس شهوداً على صعودك إلى السماء.

فعزم بافنوس على الذهاب لتلقي بركة أنطوان، وقال:

_ أعطني يا أخي زوزيمس سعفة، ولنتوجه للقاء أبينا...

فأجاب زوزيمس:

_ هيا بنا! إن الأوامر العسكرية تلائم الرهبان، الذين هم جنود قبل

كل شيء، ولأننا كلانا رئيسان فسنسير في المقدمة، وأولاء يتبعوننا وهم يرتلون المزامير.

بدأوا المسير، وقال بافنوس:

ـ الله أحد، لأنه الحق الذي هو واحد، والدنيا شتى، لأنها غي وضلال، على المرء أن يعرض عن مشاهد الطبيعة كلها حتى التي تظهر أنها غاية في الطهارة والبراءة، فتنوعها الذي يزينها لنا إنما هو دليل على شرها المستطير، أنا لا أقدر على رؤية حزمة من البردي فوق الماء الراكدة بغير أن تتشعب نفسي الهموم وتساورني الكآبة، كل شيء تحس به المشاعر وتدركه قبيح كريه، أصغر حبة من الرمل ذات خطر شديد، كل شيء يفتننا ويصيبنا بالمحن والنكبات، وما المرأة إلا مزيج من كل هذه الغوايات السابحة في النسمات الرائقة، وعلى الأرض المزهرة، وفي المياه الصافية فطوبى لمن تكون روحه وعاء مختوماً! طوبى لمن يعرف كيف يكون أصم وأبكم وأعمى، ولا يدرك كنه شيء في الدنيا، ليدرك كنه الله!

ففكر زوزيمس في هذا الكلام، وأجابه بقوله:

ـ ينبغي لي يا أبي المحترم أن أقر لك بآثامي ما دمت قد كشفت لي عن ذات نفسك، وهكذا يعترف كل منا للآخر طبقاً للعادة الرسولية، لقد حييت قبلما أترهب حياة الرذيلة، ضربت في أرجاء "مادورا" وهي مدينة مشهورة بغوانيها، وبحثت عن صنوف التمتع وضروب التلذذ، وكنت في كل ليلة أتعشى مع بنات الهوى الفتيات العازفات بالناي، وآخذ إلى بيتي من تستهويني منهن، وليس في وسع قديس مثلك أن يتصور مطلقاً إلى أي درك هوت بي شهواتي، يكفيني أن أقول لك أنني

لم أغادر كهلة صالحة أو راهبة، فأتيت المنكر، وارتكبت كل محظور ومحروم وقد هيجت حرارة مشاعري بالخمر، حتى شهد لي أهل مادورا بأنني أشد السكيرين إغراقاً في رشف بنت الحان، وأقدرهن على استفراغ الدنان، ومع ذلك كنت مسيحياً، واحتفظت مع كل حماقاتي وضلالاتي بإيماني بالمسيح المصلوب، وأخيراً، استغرقت عيشة الخلاعة والإسراف كل مالي، وبدأت أشعر بغصص الفاقة، وإذا بي أرى أحد رفقاء مسراتي قد أصيب فجأة بداء عضال فظيع، فلم تعد ركبتاه تقويان على حمله، وعصته يداه المرتعشتان، وأغمضت عيناه الخابيتان، فما كانت تصدر عن حلقه إلا تأوهات مروعة، وكلّ ذهنه، فهجع، إذ مسخه الله حيواناً تنكيلاً به لأنه عاش كالحيوان ولقد كان لي في ضياع مالي تبصرة نافعة، لكن مثل صديقي كان أبلغ وأنفع، وأثر في نفسي بحيث جعلني أترك الدنيا على الفور وأنزوي في الصحراء، وفيها تمتعت عشرين حولاً بسلام لم يكدر صفوه شيء قط، فكنت أعمل مع رهباني حائكاً، وبناءً، ونجاراً، وكاتباً، مع أنه والحق يقال لم يكن لي نحو الكتابة إلا ميل ضئيل، إذ آثرت دائماً العمل على القول، وفضلت الفعل على الفكر، وها هي أيامي ملؤها الفرح، ولياليي بغير أحلام، وإني لأعد نعم الله تعالى علي فلا أحصيها، لأنني احتفظت بالأمل حتى في إبان أشد المعاصي هولاً.

فلما سمع بافنوس هذا القول، رفع بصره إلى السماء، وتمتم:

_ أترحم يا رب هذا الرجل المدنس بهذه الخطايا كلها، أترحم هذا الزاني، أتكلأ بعين رعايتك هذا المنتهك للحرمات، ثم تعرض عني أنا الذي كنت أأتمر بأمرك، وأنتهي بنهيك!؟ ما أشد غموض عدالتك يا إلهي! وما أبعد طرقك عن الإدراك.

فمد زوزيمس ذراعيه قائلاً:

_ انظر يا أبي الموقر، ترى على جانبي الأفق صفوفاً طويلة سوداء كأنها نمل راحل، أولئك أخوتنا ذاهبون مثلنا للقاء أنطوان.

ولما وصلوا إلى الملتقى، رأوا مشهداً بديعاً، كان جيش النساك يمتد ثلاثة صفوف في نصف دائرة كبيرة، فالصف الأول يتألف من سكان الصحراء الأقدمين، بأيديهم صلبان وقد تدلت لحاهم إلى الأرض، والصف الثاني من الرهبان الذين تحت أمرة "أفرايم" و"سرابيون" ومعهم نساك النيل، ووقف وراءهم الزاهدون الذين توافدوا من معاقلهم النائية، وارتدى بعضهم أطماراً لا تكاد تستر أجسادهم السوداء الذابلة، وكان كثيرون منهم عراة غير أن الله قد كساهم شعراً كثيفاً كجزة الغنم، وكانوا جميعاً يحملون السعوف الخضر في أيديهم، فأشبهوا قوس قزح من زمرد، ويصح تشبيههم بفرقة المرتلين المجتبين، أو بجدران حية من مدينة الله...

وكان المحفل منظماً تنظيماً تاماً، حتى أن بافنوس لم يجد أقل صعوبة في العثور على مرؤوسيه من الرهبان، فاتخذ مكاناً بقربهم بعدما احتاط في إخفاء وجهه بحجابه ليبقى مجهولاً عندهم ولا يكدر عليهم ترقبهم الديني، وبغتة، تعالى هتاف الجميع حتى بلغ عنان السماء.

_ القديس! القديس " هو ذا" الولي العظيم! هو ذا حبيب الله الذي لم تتغلب عليه جهنم! أبونا أنطوان.

ثم ساد السكوت، والتصقت كل الجباه بالرمال، فتقدم أنطوان من قمة أكمة في الصحراء، يسنده تلميذاه المحبوبان، ماكاريوس وأماتاس، وسار الهوينى منتصب القامة، يشعر الناظر إليه بأن فيه بقية من قوة

فائقة، وقد سترت لحيته البيضاء صدره العريض، وانعكس على جمجمته المصقولة اللامعة شعاع النور كما عن جبين موسى، وكان لعينيه نظر النسر، وعلى فمه بسمة الطفل، فبارك قومه بأن رفع ذراعيه اللتين أوهنهما عمل شاق مدة قرن كامل، وجهر صوته، لآخر مرة، بكلمات المحبة الآتية:

ـ ما أجمل خيامك يا يعقوب! وأخبيتك يا إسرائيل!

فارتفعت في الحال من أقصى الحائط الحي إلى أقصاه، مثل قصف الرعد المتوازن، أنشودة: "طوبى للذي يخاف الرب".

ثم تفقد أنطوان مع ماكاريوس وأماناس صفوف الشيوخ والرهبان والنساك، هذا الرجل الذي رأى السماء وجهنم، هذا القديس الذي حكم الكنيسة المسيحية من قلب معقله، هذا القديس الذين ثبت يقين الشهداء في أيام المحن والاضطهاد، هذا اللاهوتي الذي صعقت فصاحته أهل الضلال، أخذ يخاطب أبناءه واحداً بعد واحد، برقة وحنان، ويودعهم وداعاً جميلاً في عشية ميتته السعيدة التي وعده بها الله الذي أحبه.

قال للرئيسين أفرايم وسرابيون:

ـ إنكما تقودان الجيوش الجرارة، وكلاكما ماهر ومدرب في فنون الحرب، لذلك سوف تتقلدان في السماء سلاحاً ذهبياً، ويمنحكما ميخائيل رئيس الملائكة لقب قائدي قواته.

ولما رأى الشيخ بالمون عانقه وقال:

ـ هذا أعز أولادي وأفضلهم جميعاً، لروحه شذى عطري كأريج زهر الفول الذي يزرعه في كل عام.

ووجه إلى الرئيس زوزيمس هذه الكلمات:

ـ إنك لم تقنط من رحمة الله، لذلك فسلام الله فيك وعليك، وقد أزهرت زنبقة فضائلك على سماء فسقك.

وكان كلامه مع كل منهم مملوءاً حكمة وإرشاداً.

قال للشيوخ:

ـ رأى الرسول حول عرش الله أربعة وعشرين شيخاً في ثياب بيضاء، وعلى رؤوسهم التيجان.

وقال للشبان:

ـ افرحوا وابتهجوا، ودعوا الحزن للسعداء في هذه الحياة

وهكذا طاف مقدمة جيشه البنوي، يمحض النصح، ويبذر العظات، فلما رآه بافنوس يقترب منه، خر ساجداً، يتنازعه الخوف، والأمل، وصاح غاصاً بآلامه المبرحة:

ـ أبتاه! أبتاه! أبتاه! أغثني فإني من الهالكين، لقد وهبت روح تاييس لله، وعشت فوق قمة عمود، وفي قاع قبر، فتصلبت جبهتي من طول التصاقها بالرغام حتى صارت مثل ركبة الجمل، ومع ذلك لا يزال الله معرضاً عني، باركني يا أبت فانجو، هز الزوفي فأطهر وأعود نقياً أتلألأ كالثلج.

فلم يجبه أنطوان، بل رشق رهبان أنصينا بتلك النظرة التي ما كان بوسع أحد الثبات أمامها... ثم استقر ناظراه على بولس، الملقب بالساذج، فحملق إليه طويلاً، ثم أشار إليه بالدنو منه، ولما أبدى الجميع دهشتهم لمخاطبة القديس رجلاً مختل الشعور، قال أنطوان:

ـ إن الله قد أنعم على هذا الرجل بما لم ينعم على أحد منكم، أرفع بصرك يا ولدي بولس، وأخبرنا بما تراه في السماء.

فرفع بولس الساذج عينيه، وأشرق وجهه، وانطلق لسانه، فقال:

ـ أرى في السماء سريراً مزداناً بسجوف من أرجوان وذهب، تحيط به ثلاث عذارى، ساهرات على حفظه، كيلا تقرب منه روح غير الروح المجتباة التي أعد لها السرير...

فبادر بافنوس يردد الشكر لله حاسباً إن هذا السرير يرمز إلى تمجيده، لكن أنطوان أشار إليه بالصمت والإصغاء للساذج الذي تمتم في ذهول الانجذاب، قائلاً:

ـ العذارى الثلاث يخاطبنني قائلات: "إن قديسة على أهبة مفارقة الأرض، تاييس الاسكندرية على وشك الموت، وقد أعددنا لها مضجع مجدها، لأننا نحن فضائلها:

"الإيمان . الخوف . والحب".

فسأل أنطوان:

ـ وماذا ترى أيضاً يا بني الحبيب؟

فنظر بولس ببله، من سمت الرأس إلى سمت القدم، ومن المغرب إلى المشرق، ثم وقع ناظراه فجأة على كاهن أنصينا، فشحب وجهه من جزع قدسي، وعكست حدقتاه لهباً خفياً، وقال:

ـ أرى ثلاثة زبانية قد امتلأوا فرحاً، واستعدوا لقبض هذا الرجل، وهم يشبهون برجاً وامرأة وساحراً، والثلاثة يحملون أسماءهم موسومة بميسم من حديد حام، الأول على جبينه، والثاني على بطنه، والثالث على صدره، وأسماؤهم هي:

"الكبرياء . والانغماس في الملذات . والشك".

لقد رأيت هذا كله.

ثم عاد بولس إلى حالته الأولى من البساطة، بعينيه الغائرتين، وحنكه المعلق.

ولما نظر رهبان أنصينا إلى أنطوان بقلق، فاه القديس بهذه الكلمات:

_ قد أعلن الله حكمه العادل، فلنعبده ونحن سكوت.

ثم سار وهو يبارك الجموع، وكان الشمس قد بلغت الأفق، فزملته بالمجد، وامتد ظله خلفه _بمنة من السماء _امتداداً عظيماً كبساط لا آخر له، رمزاً إلى التذكار الطويل الأمد الذي سيخلفه هذا الولي العظيم بين البشر...

***

أما بافنوس فقد وقف مصعوقاً، ولم ير ولم يسمع شيئاً غير الكلمات التي ملأت وحدها أذنيه، وكانت: "تاييس على وشك الموت!"، لم يخطر بباله قط مثل هذا الفكر، قضى عشرين سنة يتأمل في رأس مومياء، ومع ذلك أدهشه تصور أن الموت يغمض عيني تاييس!

"تاييس على وشك الموت!" قول غير معقول! "تاييس على وشك الموت!" يا لشدة الهول المروع في هذه الكلمات الأربع! "تاييس على وشك الموت!" إذن فما الحاجة للشمس والأزهار والغدران والبرايا جميعاً؟ "تاييس على وشك الموت!" فما فائدة السكون؟

ثم وثب فجأة صارخاً: "اذهب لتراها، لتراها مرة أخرى!" وأخذ يعدو، ولم يدر أين هو، ولا إلى أين يذهب، لكن الوجدان قاده وسدد خطاه، فسار رأساً إلى النيل، وكان سطحه مغشياً بشرع المراكب فقفز إلى ظهر سفينة لبعض النوبيين، وهناك انبطح في مقدمتها، تلتهم عيناه الفضاء، وصرخ بحزن وغضب:

_تباً لي من مجنون معتوه، لأني لم أحظ بتاييس لما سمح الزمان! ياما أشد حماقتي لأني اعتقدت أن في الدنيا شيئاً سواها! يا ويح الجنون! لقد فكرت في الله، وفي خلاص نفسي، وفي الحياة الأبدية، كأنما كل هذه تعد شيئاً مذكوراً جنب رؤية تاييس، كيف لم أدرك أن السعادة الأبدية إنما هي في قبلة واحدة من قبلاتها، وأن الحياة بدونها لا معنى لها وليست سوى حلم مزعج! يا لك من غبي أخرق، تراها ثم لا تفتأ ترغب في عالم ثان؟ يا لك من نذل جبان، تراها وتخشى الله! الله! السماء! ما هما وما نصيبي منهما؟ وهل يساوي ما يمنحانه لي أقل جزء مما كانت ستمنحه لي تاييس؟ أف لك من معتوه سخيف بحث عن رأفة الله وطلبها في كل مكان إلا على شفتي تاييس! أية يد غطت عينيك، ألا فليكن ملعوناً ذاك الذي أعماك حينذاك! كنت تستطيع أن تشتري بثمن قصاص الآخرة لحظة من حبها والتمتع بها فلم تفعل! لقد فتحت لك ذراعيها، المفطورتين من لحم ممتزج بعطر الزهر، ولم تتمل لذة الغرق في حضنها، والاستناد إلى صدرها العاري الذي لا يوصف!

لقد أصخت إلى الصوت الحسود الذي قال لك: "أعرض عن هذا" فيالك من مغفل، مغفل شقي! آه يا للحسرات! يا للندامات، أواه يا لليأس، يا لخيبة الأمل! لحرماني أن أحمل إلى الجحيم ذكرى تلك الساعة التي لا تنسى ولا تمحى!.. صارخاً إلى الله: "احرق لحمي! جفف الدماء التي في عروقي، اسحق عظامي، غير أنك لن تستطيع أن تنتزع مني التذكار الذي يعطرني وينعشني للأبد، وإلى الأبد!.. ليتك يا الله تعلم كم أسخر من جهنمك! تاييس على وشك الموت، فلن تكون لي أبداً؟ أبداً، أبداً".

وبينا السفينة تتبع التيار السريع، لبث طوال أيامه منكباً على وجهه، يكرر:

_ أبداً! أبداً! أبداً!

ولما ذكر أنها وهبت نفسها للجميع إلا له، وإنها سكبت على العالم مياه الغرام، وهو وحده لم يبلل منها شفتيه، وقف في حالة عتو ونفور، وولول حزناً، ونشج توجعاً، ومزق صدره بأظفاره، وعض زنديه، وحدث نفسه:

_ ليتني أجد سبيلاً إلى قتل من أحبتهم أجمعين.

فملأته فكرة هذا التقتيل بحميا لذيذة وحنق عذب، ففكر في ذبح نسياس، على مهل رويداً رويداً رويداً، بينما هو يحدق في قرارة ناظريه، ثم ما لبثت حميته أن خمدت فجأة فبكى وتأوه، ووهن العظم منه، فارتد ضعيفاً وديعاً، وسكن اضطراب نفسه حنو مجهول، وتملكته رغبة الارتماء على عنق رفيق صباه، ليقول له:

"نسياس إني أحبك لأنك أحببتها، حدثني عنها! اخبرني بما قالته لك"..

وكانت مرارة تلك الجملة: "تاييس على وشك الموت!" لا تزال عالقة بنياط قلبه:

_ يا أنوار النهار العسجدية! يا أظلال الليل الفضية! أيتها النجوم! أيتها السموات! أيتها الأشجار المرتعشة قممها! أيتها الوحوش الضارية! أيتها الحيوانات الأليفة! يا نفوس الرجال المتلهفة! ألا تسمعون! "تاييس على وشك الموت!"، أيتها الأنوار الساطعة والأنفاس الصاعدة، والعطور الطيبة _أمحي وافني! يا بهاء الكون ورواءه، وأشكاله وأفكاره _اختفي واختبئ! "تايينس على وشك الموت!" تاييس كانت جمال العالم، ينعكس حسنها على كل ما يقربها فيصبح زينة للناظرين... ما كان ألطف ذلك

الشـيخ الهـرم، وأولئك الحكمـا ء الذين جلسـوا بقـربهـا في مـأدبة الاسكندرية! ما كان أمتع حديثهم وأرقه! إن سرباً من الضحكات الرائقة حام حول شفاههم، وضمخ السرور خواطرهم، ولأن أنفاس تاييس هبت عليهم، فكل ما قالوه فاح حباً، وجمالاً، وحقاً. ولقد خلع الإلحاد الجميل على أقوالهم ثوب ملاحته، فأفصحوا ببلاغة عن الجلال البشري.. واأسفاه! ليس كل ذلك الآن إلا حلماً، تاييس على وشك الموت! أواه! ما أشد بداهة إني مائت لموتها! ولكن.. أنى لك الموت أيها النطفة القذرة الجافة، أنى لك الموت أيها الجنين المنقوع في مرارة الضر وحزازة الدمع؟ أيها السقط الشقي هل يعلق بوهمك أنك ستذوق طعم الموت، أنت الذي لم يعرف الحياة؟ لكن لعل الله يكون موجوداً فيقضي علي بعذاب الآخرة! هذا رجائي ومشتهاي، أيها الإله الذي أمقته، أستجب لي! أقذف بي إلى جهنمك وبئس المصير، وإني لكي أكرهك على فعل ذلك... في وجهك... يجب أن أجد جحيماً أبدياً لا ينطفئ سعيره، ولا تخبو نيرانه، كيما أستطيع أن أبخر فيها أبدية السخط التي احتوت عليها نفسي.

...

وعند طلوع الفجر، تلقت "ألبين" كاهن أنصينا في مدخل الصوامع، فقالت له:

ـ مرحباً بك أيها الأب الموقر في أخبية السلام، إنك آت بلا شك لتبارك القديسة التي أعطيتنا إياها، أنت تعلم أن الله قد دعاها إليه، وكيف لا تعلم البشائر التي يحملها الملائكة من بادية إلى بادية؟ حقاً لقد دنت تاييس من نهايتها السعيدة، فقد تمت أعمالها، وعليّ أن أخبرك بكلمات وجيزة عن سيرها في الزمن الذي قضته بيننا بعد

رحيلك، وكانت حبيسة الصومعة التي أغلقتها بخاتمك، أرسلت إليها مع طعامها ناياً كالذي تضرب به الفتيات اللاتي يحترفن حرفتها في الولائم والحفلات، فعلت ذلك لكيلا تتعبها الهموم وتكتئب، وكي تظهر أمام الله سبحانه من البراعة والمواهب ما لا يقل عما أظهرته أمام الناس، ولقد أحسنت صنعاً وكنت صادقة الفراسة، لأن تاييس أخذت توقع يومياً على الناي مدائح "مخلص البشر".

وقال العذارى اللاتي شاقتهن أنغام الناي الخفي:

_ أنا نسمع عندليب الخمائل السماوية، نسمع ثمة[6] يسوع المصلوب التي تحتضر... كذلك قضت تاييس توبتها، وبعد ستين يوماً فتح الباب الذي ختمته من تلقاء نفسه، وانكسر الختم الصلصالي من غير أن تمسه يد بشرية، فأدركت من هذه العلامة أن الله تعالى قد غفر للضاربة بالناي خطاياها، ومن ذلك الحين شاركت بناتي في عيشتهن، فكانت تعمل وتصلي معهن، وصارت لهن قدوة صالحة بما في حركاتها وكلماتها من حشمة ووقار، وكانت بينهن مثال الخفر والعفاف، وفي بعض الأوقات، كان يتقسمها الهم والشجن، ويتناوبها الغم والحزن، غير أن هذه السحب ما لبثت أن تقشعت، ولما رأيت أنها شديدة التعلق بالله، منقادة إليه بالإيمان والأمل والحب، لم أخف أن أستخدم فنها، بله جمالها، في تهذيب أخواتها، فدعوتها لتمثل أمامنا أعمال النساء الشهيرات، والعذارى العاقلات اللاتي ذكرهن الكتاب المقدس، فمثلت أستر، ودبورة، ويهوديت، ومريم أخت لعاذر، ومريم أم يسوع. إني عالمة علم اليقين يا أبي الموقر بما ينال قداستك وورعك من جزع لذكرى تلك المشاهد التمثيلية، بيد أنك لو كنت رأيتها في تلك المشاهد الصالحة

تتفجر في عبراتها الصادقة، وتمد ذراعيها كالسعف نحو السماء، إذن لتأثرت أشد تأثر، سست النساء ورعيتهن زماناً طويلاً، ومن مبدئي ألا أقاوم طبيعتهن فليست كل البذور تنبت أزهاراً متشابهة، وليست كل النفوس تطهر بوسيلة واحدة، ويجب أن تذكر أيضاً أن تاييس قد وهبت نفسها لله وهي لا تزال شائقة في ريعان صباها، وأن نقدر مثل هذه التضحية، التي إن لم تكن منقطعة النظير، فهي بلا مراء نادرة الحصول، هذه الملاحة، ثوبها الطبيعي، لم تفارقها بعد ثلاثة أشهر من إصابتها بالحمى التي تكاد تؤدي بها، وكانت أثناء مرضها تطلب بإلحاح أن ترى السماء، فأمرت بأن تنقل في كل صباح إلى صحن الدير قرب البئر تحت شجرة التين القديمة، التي في ظلها كانت رئيسات الدير يقمن محافلهن، ستجدها هناك أيها الأب المحترم، لكن خف وأسرع، إن الله يدعوها إليه، ولا تلبث أن تلبي الدعوة، وفي هذا المساء يغطي الكفن ذلك المحيا الذي فطره الله لإفساد العالم وإصلاحه.

تبع بافنوس ألبين إلى الساحة المغمورة بنور الصباح، وقد كون الحمام على طول السقف المتخذ من الآجر صفا من اللآلئ، وكانت تاييس راقدة في فراش في ظل شجرة التين، يغشاها بياض ناصع، وقد تعارضت ذراعاها على صدرها، ووقفت بجانبها نساء مقنعات، يرددن صلاة النزع:

_ ارحمني يا الله كعظيم رحمتك حسب كثرة رأفتك أمح معاصيي!

فناداها:

_ تاييس!

فرفعت جفنيها، وولت مقلتيها البيضاوين صوب الصوت.

فأشارت ألبين إلى النساء المحجبات أن يتراجعن بعض خطوات.

وكرر الراهب نداءه:

_ تاييس!

فرفعت رأسها، وخرج من بين شفتيها الباهتتين همس خافت:

_ هذا أنت يا أبي؟.. أتذكر ماء الينبوع، والتمر الذي لما هززنا إلينا الجذع تساقط رطباً جنيا؟.. في ذلك اليوم يا أبي، ولدت للحب.. للحياة..

ثم انقطعت عن الكلام، وعاد رأسها فسقط.

دهمها الموت، وكلل العرق البارد جبينها، ومزق جلال السكوت صوت يمامة نائحة... ثم امتزجت تنهدات الراهب وزفراته بمزامير العذارى:

_ اغسلني كثيراً من اثمي ومن خطيئتي طهرني، لأني عارف بمعاصيي وخطيئتي أمامي دائماً.

ثم جلست تاييس فجأة في فراشها، وانفتحت عيناها البنفسجيتان، وقالت وهي تحدق إلى الأفق، وقد مدت ذراعيها نحو التلال البعيدة:

_ هو ذا ورد فجر الصباح الأبدي.

ولمعت عيناها، وصبغت حمرة خفيفة وجنتيها، وبدت أحلى وأجمل مما كانت في أي وقت من الأوقات، فركع بافنوس أمامها، واحتضنها بين ذراعيه الأسمرين، وصرخ بصوت بلغ من الغرابة مبلغاً أنكره هو نفسه:

_ لا تموتي! إني أحبك فلا تموتي! اسمعيني يا حبيبتي تاييس، لقد خدعتك ومكرت بك، وما كنت إلا معتوهاً شقياً، إن الله والسموات ليست شيئاً مذكوراً، وما من شيء له وزن، وهو حق، إلا الحياة الدنيا متاع السرور، وإلا الحب الجسدي! إني أحبك! فلا تموتي، لا تذعني

للمنون! ذلك يكون محالاً وأمراً باطلاً، إنك جميلة فتانة آية الآيات، تعالي نتبادل الحب ونرشف كؤوسه، أصغى لي يا حبيبتي واسمعيني وقولي: "سأعيش، لأني راغبة في العيش، سوف أحيا، إني أريد الحياة". تاييس! تاييس! انهضي!..

لم تسمعه، كانت عيناها تسبحان في اللانهاية...

تمتمت:

_ السماء تفتح، إني أرى الملائكة والأنبياء والقديسين... في وسطهم تيودور الصالح مملوء اليدين بالأزهار، إنه يبتسم لي، ويدعوني إليه... يأتي إلي ملكان، ها هما يقتربان... ما أجملهما!.. إني أرى الله.

تنهدت ابتهاجاً وانقلب رأسها على الوسادة بغير حراك...

ماتت تاييس...

فعانقها بافنوس عناق اليأس والقنوط الأخير، وقد التهمتها عيناه باشتهاء... وغل... وحب...

فزجرته ألبين قائلة:

_ اخسأ يا لعين!

ووضعت أصابعها برفق على جفني المائتة، فتراجع بافنوس وهو يرتجف، وعيناه تشتعلان، وأحس بالأرض تسيخ وتنشق تحت قدميه.

ثم رتل العذارى نشيد زكريا:

_ تبارك الرب إله إسرائيل..

وما لبثت أصواتهن أن انقطعت في حلوقهن، إذ رأين وجه الراهب، فولين، مذعورات، صارخات:

ـ وطواط! وطواط.

فقد حلت ببافنوس نقمة ربه، فسخطه، فاستحال إلى شخص قبيح مروع، حتى إذا ما مر بيده على وجهه، أحس ببشاعة خلقته...

تمت

الهوامش:

١ _الفربيون L,uphorbe اسم مشتق من "أوقريبوس" اسم طبيب أحد ملوك العرب . ويطلق على نبات سام تسيل منه عصارة لبنية راتنيجية من ضمن المسهلات الشديدة " _المترجم"

٢ _توجد حكاية تاريخية من هذا النوع . قيل أن أحد المتنسكين عاش فوق قمة عمود حيث قضى نحو ثلاثين عاماً . ولقب بسمعان العمودي . ولله في خلقه شؤون! " _المترجم" .

٣ _التي تأتي كل أربعة أيام .

٤ _يريد به الشيطان .

٥ _الأريوسي هو من ينكر لاهوت المسيح عليه السلام .

٦ _أي وزة عراقية وهي بالإفرنسية "Cygne" وبالإنكليزية "Swan"

الفهرس

أناتول فرانس

نوبل 1921

- ولد في 16 أبريل 1844
- نشأ محباً للكتاب ، شغوفاً بالقراءة
- بدأ الكتابة في سن مبكرة ، حيث نشر مجموعات شعرية عديدة وقصصاً نالت تقديراً من النقاد ورواجاً من القراء.
- حقق شهرة واسعة بعد نشر (جريمة سلفستر بونار)
- من بين ابداعاته:
- تاييس
- الزنبقة الحمراء
- مطبخ الملكة بيروك
- حديقة ابيقور
- آبار سنت كلير
- ثورة الملائكة
- الآلهة عطشى
- والكتب الثلاثة التي تصف طفولته ونشأته:(كتاب صديقي)، (بيير الصغير)،(ازدهار الحياة).
- توفي في 12 اكتوبر 1924

ISBN:2-84305-869-X

